مكتبة الدراسات الأدبية

٨٠

الدكتورة فاطمة محجوب

قضية الزمن في الشعر العربي

الشباب والمشيب

دار المعارف

قضية الزمن فى الشعر العربى

الشباب والمشيب

مكتبة الدراسات الأدبية
٨٠

قضية الزمن في الشعر العربي

الشباب والمشيب

تأليف
الدكتورة فاطمة محجوب

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(أ)

أ - ١ :

إن قضية الزمن قضية كل حيّ ؛ إذ إنها تتصل بحياة الإنسان على الأرض ؛ فهو يولد طفلاً ، ثم يبلغ أشده ، فإذا امتد به العمر خط المشيب رأسه ، ثم يصيبه الكبر ويصير شيخا ، وهو إن عمّر نكّسه الله فى الأرض فلا يعلم بعد علم شيئاً .

ويحدثنا القرآن الكريم فى عدد من الآيات عن مراحل حياة الإنسان على الأرض فيقول تعالى : «هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا » (غافر ٦٧) ويقول تعالى : «ونُقِرُّ فى الأرحامِ ما نشاء إلى أجل مُسمًّى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفّى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » (الحج ٥) ويقول تعالى : «ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون » (يس ٦٨) ونجد فى هاتين الآيتين الأخيرتين إشارة إلى التغيرات النفسية والعقلية التى تحل بالإنسان حين يتقدم به العمر .

وهذه التغيرات النفسية والعقلية تأتى مصاحبة للتغيرات الجسمانية من مشيب يخط الرأس وضعف يدب فى الجسم . ويشير القرآن الكريم إلى هذا كله فيقول تعالى : «الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشَيْبة ، يخلق مايشاء وهو العليم القدير (الروم ٥٤) .

وهذه الحقائق قد تضمنها نداء زكريا ربه حيث يقول تعالى : «قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا » (مريم ٤) ويشير القرآن الكريم فى مواضع أخرى بكلمة «شيخ » إلى مايعترى الإنسان فى كبره من عجز وضعف فيقول تعالى على لسان ابنتى شعيب : «قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير» (القصص ٢٣) ويقول تعالى على لسان إخوة يوسف : «قالوا يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه » (يوسف ٧٨)

كذلك يشير القرآن الكريم إلى حقيقة أخرى تتصل بالمشيب ، ألا وهى المشيب قبل الأوان فتشتعل به الرأس حين يتعرض الإنسان للمحن والأهوال فيقول تعالى : «فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً» (المزمل ١٧) .

وإذن فقضية الزمن تنحصر فى الشباب والمشيب والكبر ، شباب سرعان مايولى إذ هو ثوب معار سرعان مايعرى منه المرء ، كما يعرى من الورق القضيب (انظر البيت رقم ١٠٩) ، ومشيب يحيل السواد الذى يصحب الشباب بياضاً ، وكبر يأتى فى أعقاب المشيب .

ولما كان المشيب هو العلامة الظاهرة لهذا التغير فى حياة الإنسان فإن لفظه يستخدم للدلالة على جميع المراحل التى تعقب تولّى الشباب ومن هنا كان المشيب محنة إنسانية يمر بها الناس من كل لون ودين ، ويحسون آثارها فى أنفسهم ، وفيمن يحيط بهم من أهل وأقارب وأحبة . ولذلك نجد أن من وخط المشيب رأسه لايفتأ يتحسر على الشباب ، ويذكر أيامه ، ويتمنى عودته ، ويحسد الشباب على ما يتفجرون به من قوة ؛ كما أنه يكره المشيب ، فهو لا يفتأ يذكره بسوء لأنه يرتبط فى وجدانه وأمورٌ عدة كلها بغيضٌ إلى نفسه : فهو يقطع عليه طريق الاستمتاع بالحياة كما يستمتع بها الشباب ، وهو يفرض عليه قيوداً فى السلوك ، ووقاراً هو أزهد الناس فيه ؛ كذلك فإن المشيب يرتبط فى وعيه وقربُ دنو الأجل فهو يرى فيه نذير المنية .

فإذا كان هذا هو شعور الإنسان العادى فما بالك بالشعراء وهم على ماهم عليه من حس مرهف ، ومن ظمأ إلى الجمال الذى يستلهمون منه أشعارهم ، ذلك الجمال الذى ينفر من المشيب حين يزحف على الرأس ؛ كما يزحف النهار على الليل ! وإن الشاعر ليحزن أشد الحزن وهو يرى مافعله به المشيب من هزء الغوانى وملامتهن ، وصدودهن بعد إقبالهن ، وذهاب المرح من حياته وحلول الترح ، وزحف الأمراض والعلل ، وظهور آيات الكبر ، لذلك كله نجده يمدح الشباب ويكثر من البكاء عليه ، ويذم المشيب ويشكو مافعله به ، ويشكو إعراض الغوانى ويحاول جاهداً إقناعهن بالعدول عن الصدود والملامة ، ويدافع مستبسلاً عن المشيب معدداً محاسنه ومزاياه ، ونجده يتحدث عن الخضاب باعتبار أنه قد يكون حلاً لمشكلة الزمن !

وإن الباحث لتأخذه الدهشة من هذا الفيض من الشعر العربى الذى يتناول الشباب والمشيب : فالشاعر العربى قد يبدأ قصائده بذكر أحدهما أو كليهما ، أو يضمنها أبياتاً تتعلق بالشباب والمشيب وآيات الكبر ، وقلما تخلو قصيدة من ذكر هذا كله ، سواء كان تصريحا أم مجازاً .

وقد قال عمرو بن العلاء : «مابكت العرب شيئاً مابكت على الشباب ، ومابلغت به ما يستحقه»

وقال الأصمعى : «أحسن أنماط الشعر فى المراثى والبكاء على الشباب» (العقد الفريد ٢/٣٥١)

وهذا الذى يتناوله الشعراء فى قصائدهم إنما يعبر عن الأفكار التى تدور فى أذهان الناس ويتداولونها فى مجتمعهم : فمدح الشباب أو ذمه أو التحسر عليه ، وذم المشيب أو مدحه ، والتحدث عما يصيب الجسم من ضعف ووهن ، ومن أمراض وعلل يأتى بها الكبر- كلها أمور يخوض الناس فيها فى أحاديثهم اليومية ، كما يجدونها مكتوبة عندهم فى بطون الكتب : فمن مدح الشباب ماجاء فى اللطائف والظرائف/ ١٠٦ من قول الصولى فى كتاب «فضل الشباب على المشيب» الذى ألفه للمقتدر :

«الشيب لا يقدم مؤخراً ولايؤخر مقدماً ، بل ربما عدل بجلائل الأمور ومهمات الخطوب عن المشايخ إلى الشبان لاستقبال أيامهم ، وسرعة حركاتهم ، وحدة أذهانهم ، وتيقظ طباعهم ؛ لأنهم على ابتناء المجد أحرص ، وإليه أصبى وأحوج» وقال بعض البلغاء :

«الشباب باكورة الحياة ، وأطيب العيش أوائله كما أن أطيب الثمار بواكيرها»

ومن ذم الشباب ما جاء فى المرجع نفسه (ص ١٠٨ - ١٠٩) قولهم :

إن الشباب مطية الجهل ، ومظنة الذنوب ، وشعبة من الجنون ! ويقال : سكر الشباب أشد من سكر الشراب ! وقال ابن المعتز : «جاهل الشباب معذور وعالمه محقور ! وكان يقول : «نعوذ بالله من ترهات الشبان ونزغات الشيطان»

أما مدح المشيب فقد كان العرب يقولون فيه : «الشيب حلية العقل ، وسمة الوقار» وكان يقال : «الشيب زبدة مخضتها الأيام وفضة سبكتها التجارب» . وكان بعض الحكماء يقول : «إذا شاب العاقل سرى فى طريق الرشد بمصباح الشيب» ووصف بعض البلغاء رجلاً شاب وارعوى عن مجاهل الشباب فقال : «ذاك قد عصى شياطين الشباب وأطاع ملائكة الشيب» .

وقال ابن المعتز : «عظم الكبير فإنه عرف الله قبلك ، وارحم الصغير فإنه أغرّ بالدنيا منك» وكان يقال : «الشيخ يقول عن عيان ، والشاب عن سماع» (اللطائف والظرائف ١٠٨) . ونقرأ فى المرجع نفسه أن للبديع الهمذانى فصلاً فى مدح الشيب وذم الشباب يقول فيه : «جزى الله المشيب خيرا ، فإنه أناة ، ولاردّ الشباب فإنه هنات ، وبئس الداء الصبا ، وليس دواؤه إلا انقضاءه ، وبئس المثل النار ولا العار ، ونعم الراكضان الليل والنهار ، وأظن الشباب والشيب لو مثلا لكان الأول كلباً عقوراً ، والآخر شيخاً وقوراً ، ولاشتعل الأول ناراً واشتهر الآخر نوراً ،

فالحمد لله الذى بيّض القار ، وسماه الوقار ، وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد ! إن السعيد من شابت جملته ، ولم تخصّ بالبياض لحيته »

وأما عن **ذم المشيب** فيروى لنا صاحب العقد الفريد (٣٤٨/٢) أنه جاء فى الحكم : «كفى بالشيب داء» وقال أعرابى : كنت أنكر البيضاء ، فصرت أنكر السوداء ، فياخير مبدول وياشر بدل ! » وقال القاحم : «الشيب ناهى الشباب ورسول البلاء» وقال يونس النجوى : «الشيب مجمع كل عيب (اللطائف والظرائف ١٠٩) ونقرأ فى عيون الأخبار (٣٢٤/٢) أن إياس بن قتادة رأى شعرة بيضاء فى لحيته فقال : أرى الموت يطلبنى وأرانى لا أفوته ؛ أعوذ بك من فجاءات الأمور ، يابنى سعد قد وهبت لكم شبابى فهبوا لى شيبتى» ولزم بيته .

وعن **الشيب المبكر** بسبب المحن والأهوال يروى لنا صاحب العقد الفريد (٣٤٨/٢) أنه قيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ! قال شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن ! ونعلم من المرجع نفسه أن الشيب المبكر قد يكون بسبب الانغماس فى اللهو والباطل ؛ فقد قيل لرجل من الشعراء : عجل عليك الشيب ! فقال : وكيف لايعجل وأنا أعصر قلبى فى عمل لايرجى ثوابه ولا يؤمن عقابه !

ويتحدث الناس عن أن الشيب عند بعضهم قد يكون **وازعاً ورادعاً** ، فقد قال أعرابى : كنت فى شبابى أعضّ على الملام عضّ الجواد على اللجام ؛ حتى أخذ المشيب بعنانى !

ويرى الناس أيضاً أن الشيب **نذير الكبر** فيقول النميرى : الشيب عنوان الكبر .. ويُسأل أعرابى عن سبب اشتعال شيبه فيقول : هذا رغوة الشباب ! وعن الضعف والوهن ومقومات الكبر ينبئنا صاحب العقد الفريد (٣٥٧/٢) أنه قيل لأعرابى قد أخذته كبرة السّن : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت تقيّدنى الشعرة ، وأعثر بالبعرة ! قد أقام الدهر صَعَرى بعد أن أقمتُ صَعَره ؛ كما ينبئنا (ص ٣٦١) أن أبا عبيدة قال : قيل لشيخ مابقى منك ؟ قال : «يسبقنى مَنْ أمامى ، ويدركنى من خلفى ، وأذكر القديم ، وأنسى الحديث ، وأنعس فى الملا ! وأسهر فى الخلا ! وإذا قمت قربت الأرض منى ، وإذا قعدت تباعدت عنى ! وهذا القول شبيه بما نجده فى الموسوعات الطبية من وصف لآيات الكبر . .

كذلك نقرأ فى البيان والتبيين ٤٦٤ أن بعضهم قال : من بلغ السبعين اشتكى من غير علة ، وأن العتبى قال : الشيب مجمع الأمراض .

أما عن كون الشيب نذير المنية فنقرأ فى العقد الفريد (٣٤٧/٢) أن قيس بن عاصم قال : الشيب حطام المنية ؛ وأن المعتمر بن سليم قال : الشيب موت الشعر ، وموت الشعر علة لموت البشر ؛ كذلك نقرأ فى اللطائف والظرائف ١٠٩ أن الحجاج قال : الشيب بريد الموت ! وقال مالك بن أنس : الشيب توءم الموت ، وقال العتابى : الشيب نذير المنية ؛ وقال ابن المعتز : الشيب أول مواعيد الفناء ! وقال غيره : الموت ساحل الحياة والشيب سفينة تقرب من الساحل ! وقال ابن عائشة : الشيب قناع الموت ؛ وقال ابن شكلة : الشيب إحدى الموتتين ! ونقرأ فى البيان والتبيين ٣٧٨ قول بعضهم : الشيب نذير الآخرة ، وقول المعتمر بن سليمان : الشيب أول مراحل الموت ! وقول السهمى : الشيب تمهيد الحِمام !

وهذا الذى سردناه من أقوال الناس وأقوال الحكماء والمشهورين هو فى معظمه ماتناوله الشعراء العرب فى أشعارهم . ولما كانت المادة الشعرية فى هذا المجال غزيرة كل الغزارة فقد رأينا أن نكتفى بعدد محدود يبلغ ١٣٠٢ نموذجاً وجدنا أنها تتضمن كل تلك المعانى ، ومن ثم فقد وجدنا أن عرض المزيد من تلك النماذج لن يسفر عن إضافة جديدة لتلك المعانى التى استخلصناها من النماذج التى اتخذناها أساساً للبحث ، وقد بلغ مجموع النماذج بما فيها الباب الخاص بالبحترى ١٥٧٠ بيتاً .

أ – ٢ : منهج البحث :

وإذا نحن حاولنا أن نحدد إطاراً عامًّا نضع فيه موقف الشاعر العربى ، بل موقف الإنسان بوجه عام من قضية الزمن – فلن نجد خيراً من بيت من الشعر جمع من المعانى مايكفى ، لكى يمدنا بمادة غزيرة تكون أساساً لأى بحث يتناول تلك القضية ، هذا البيت الجامع هو قول **أبى العتاهية** (٤٢٩/٨)

١ ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما صنع المشيب !

والواقع أننا نجد أن هذا الإطار العام ينطبق على الشعر على مستوى الشعراء ، أو مستوى الشاعر الواحد (كالبحترى مثلا) وعلى مستوى القصيدة الواحدة ، بل أحياناً البيت الواحد .

إن صدر هذا البيت الذى نحن بصدده ، والذى نبدأ به قائمة النماذج يتضمن بكاء الشاعر على شبابه ، وتحسره على ذهابه وتمنيه عودته ، ومن ثم جعلناه عنواناً **للباب الأول** من هذا الكتاب

بحيث يشتمل على ماستطعنا جمعه من نماذج تتناول هذه المعانى .

أما **عجز** البيت فقد جعلناه عنواناً **للباب الثانى** ، لأنه يجيب على السؤال الذى هو لب قضية الزمن ، ألا وهو : ماذا يفعل المشيب بالإنسان ؟ وإن عجز هذا البيت لمن البلاغة بحيث إنه يتيح للمرء أن يدرج تحته مئات من المشكلات التى تبدأ مع المشيب ، وهذا ماجعلنا ندرج تحته باقى فصول الكتاب .

فالفصل الثانى يتناول المشيب بالوصف ، وماجاء فى الشعر العربى فيه من مدح أو ذم ، ودفاع الشاعر عنه .

أما **الفصل الثالث** فيقدم لنا وسائل مقاومة المشيب ومحاولة حل مشكلاته عن طريق الخضاب ، بيد أنه حين يتيقن الشاعر أنه لاجدوى من الدفاع أو المقاومة يستسلم للأمر الواقع ، حيث أصبحت آيات الكبر ظاهرة يتعذر إخفاؤها ، وهو ما يتناوله **الفصل الرابع** .

ولما كنا قد عثرنا على مجموعة من القصائد لعدد من الشعراء يجتمع فى كلٍّ منها كلّ أو جلّ المعانى التى استخلصناها فقد رأينا أن نقدمها فى باب مستقل هو **الباب الثالث** بحيث تكون بمثابة تلخيص للمادة الشعرية وماجاء بها من معان .

كذلك وجدنا أن **البحترى** يكثر من ذكر الشباب والمشيب كثرة تسترعى نظر الباحث بحيث يمكن القول : إن معظم قصائده ، وبخاصة قصائد المدح – تبدأ بأبيات عن الشباب أو المشيب ، أو تتضمنها فى ثناياها ، لذلك رأينا أن نفرد له باباً خاصًّا هو **الباب الرابع** . وقد تخيرنا منها ٢٦٨ بيتاً اختتمنا بها هذا الكتاب .

وجدير بالذكر أن المعانى التى يتناولها البحترى ، والمصاحبات اللفظية التى يستخدمها لا تكاد تخرج عن تلك التى أحصيناها ، وصنفناها فى فصول هذا الكتاب . وقد أوردنا تلك الأبيات متبعين الترتيب الذى اتبعناه نفسه فى تقسيم فصول الكتاب ، غير أننا اكتفينا بإدراجها تحت عناوينها دون تعليق تجنباً للتكرار .

وبعد هذا كله أوردنا للبحترى مجموعة من الأبيات تضم معظم المعانى التى حددناها ، وذلك لكى تكون بمثابة تلخيص لها .

وقد راعينا فى سرد نماذج الشعر أن نكتب المصدر بين قوسين يضمان رقمين أو أكثر ، فإن كانا

رقمين فالأول يفيد ترتيب المصدر فى قائمة ثبت المراجع التى جاءت بآخر الكتاب ، والرقم الآخر يدل على الصفحة التى أخذ منها النموذج : مثال ذلك البيتان رقما ١١٨٤ ، ١١٨٥ وهما لحسان بن الغدير : فقد جاء التعريف بالمصدر هكذا : (٥٠٣/٨) وهو يفيد أن المصدر هو رقم ٨ فى قائمة ثبت المراجع (وهو البيان والتبيين) وأن الرقم ٥٠٣ هو رقم الصفحة التى نقلناها منها البيتين المشار إليهما . أما إذا كان المصدر يتكون من أكثر من جزء أو قسم فإن رقم المصدر يأتى أولاً ، ثم رقم الجزء ، ثم رقم الصفحة : فمثلا ٣٧٠/٣/١٢ : تعنى أن نموذج الشعر قد أخذ من رقم ١٢ فى ثبت المراجع ، وهو فى هذه الحالة «معادن الجواهر» والجزء الثالث صفحة ٣٧٠ ، ويلاحظ أن الأرقام يفصل بينها خط مائل .

كذلك فقد راعينا فى ترتيب نماذج الشعر أن نعطى كلا منها رقماً مسلسلاً يستدل به عليه ، فإذا دعت الضرورة إحالة القارىء إلى واحد أو أكثر من تلك النماذج فإن رقمه يوضع بين قوسين ، وإذا دعت الضرورة إلى إعادة ورود بيت أو أبيات بعينها فإنها فى تلك الحالة لاتُعْطى رقماً جديداً ، وذلك حتى تظل مرتبطة بالرقم الأصلى الذى أعطيته عند ورودها لأول مرة ، مثال ذلك : بيت أبى العتاهية الذى اتخذناه إطارا لبحثنا ، فقد ورد أول مرة تحت رقم (١) ولكن دعت الضرورة إلى وروده مرة أخرى مع بيت سابق له ، وذلك فى ١ — د فلم نعطه رقماً ، ويلاحظ أن الأرقام إذا زادت عن رقم فإنه يفصل بينها بفواصل تمييزاً لها عن الأرقام الدالة على المصدر .

ويجدر التنويه إلى أنه قد أجريت بعض التغييرات حيثما وجد أحد الأبيات مختلّ الوزن ويمكن للقارئ دائما أن يرجع إلى المصدر للتحقق من الأصل ، ويرجع الفضل فى هذه التغييرات إلى دقة الأستاذ المراجع بدار المعارف وسعة اطلاعه .

أ — ٣ : مادة البحث :

إن الشعر الذى يتناول قضية الزمن ، والذى تتضمنه فصول هذا الكتاب إنما يتناول الشباب والمشيب تناولاً مباشراً واقعيًّا ، وهو — وإن تضمن جوانب بيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية — إن هذا كله لما يتصل بحقيقة الشباب والمشيب أو بالتجربة الذاتية للشاعر . غير أننا وجدنا أن اهتمام الشاعر بقضية الزمن يجعله حين يعمد إلى الوصف البيانى كالتشبيه مثلاً فإنه يجعل المشبه به هو الشباب أو المشيب أو مايدل على كل منهما من سواد وبياض وغير ذلك ، ومن ثم فقد رأينا أن يكون مكان مثل تلك الأبيات هو المقدمة .

فمن حيث الشباب نجد أن الشعراء حين يصفون شيئاً يكون ذا رونق وبهاء — فإنهم يصفونه بالشباب : كقول **ابن الرومي** فى بغداد وقد غاب عنها فى بعض أسفاره (٢٦٩/١٣) :

٢ بلدٌ صحبتُ به الشبيبةَ والصِّبا ولبستُ ثوبَ اللَّهو وهو جديدُ

٣ فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أغصانُ الشبابِ تميدُ

كما أنهم يشبهون مايستحسنونه بالعيش فى زمن الصبا : كقول **الوأواء الدمشقى** (٤٣٦/٥/٤) :

٤ يطوف براح ريحها ومذاقُها نسيمُ الصَّبا والعيشُ فى زمنِ الصِّبا

وقول **البحترى** يمدح أحمد بن سليمان ابن أخت أبى صقر (٢٢٢١/٤/٤٦ ، البيت ٣٢ ، وهو آخر أبيات القصيدة) :

٥ يذكّرنا لُبس نعمائِهِ لباس الشباب وريعانِهِ

وقوله (٢١٣٧/٤/٤٦ — ٢١٣٨) :

٦ أيام رأسى كالغراب أسْحَمُهُ يَتَيَّمُ الرِّيمَ ولايتيّمهْ

كذلك فإن الشعراء حين يريدون مدح شىء أو تعظيمه — يصفونه بأنه يردُّ المرء إلى اقتبال شبابه : كقول **أبى العلاء المعرى** من قصيدته التى يجيب فيها شاعراً مدحه يعرف بأبى الخطاب الجَبَلىّ (٧٢٦/٢/١١) :

٧ وهززتَ أعطافَ الملوكِ بمنطقٍ رَدَّ المُسِنَّ إلى اقتبالِ شبابِهِ

وفى هذا المعنى يقول **ابن سناء الملك** (١٤٢/٢٧) :

٨ أعاد شبيبتى بعد المشيبِ وأمسى مسقمى وغدا طبيبى

ويقول **حافظ ابراهيم** (٢٣١/٢٤) :

٩ وَردُّوا على الإسلام عهدَ شبابه ومدّوا له جاهاً يُرَجَّى ويُرْهَبُ

ويُقْرن الشباب والمشيب فيما يضرب الشعراء من أمثال ، من ذلك قول **الشاعر** (٢٢٢/٨) :

١٠ سواء كأسنان الحمار فلاترى لذى شيبة منهم على ناشئ فضلا

وقول آخر (٢٢٢/٨) :

١١ شبابهم وشيبهم سواءٌ فهم فى اللون أسنان الحمار

وفى مجال التحسر على الشباب نجد **السرىّ الرفّاء** يضرب مثلاً بذكر الشيوخ شبابَها فيقول (٩٥١/١٠/٤) :

١٢ ألاحظها لحظ الطَّريد مَحَلَّهُ وأذكرها ذِكْرَ الشيوخ شبابَها

وفى هذا المعنى يقول **أبو محمد الحسن التنيسى** (٥٩٦/٧/٤) :

١٣ طربت نفسى إليه وإلى طيب اقترابهْ

١٤ طرب الشيخ إذا ذكّر م أيام شبابه

ونجد الشعراء يشيرون إلى مرور الزمن بوصف برد الشباب بأنه قد بدأ يخلق ، فنسمع **السرىّ الرفّاء** يقول (٩٣٤/١٠/٤) :

١٥ وقطعتُ الشباب فيه إلى أن هَمَّ بُردُ الشبابِ بالإخلاقِ

ونجدهم فى وصفهم يزاوجون بين الشباب والليل إشارة إلى سواد الشعر ، فيقول **أبو العلاء المعرى** من قصيدة له يهنئ بزفاف (٨٥٥/٢/١١) :

١٦ نال شباباً مستقبلاً تهرَمُ دنياهُ ولايَهْرَمُ

وهو يعنى هنا أن الليل (وهو سواد) بماكان فيه من الزفاف يبقى على مر الدهور شباباً (وهو سواد) لايمسه هرم وإن هرم الدهر.

ويقول **أبو القاسم الزاهى** (٣٧٨/٤/٤) :

١٧ ماكنتُ أحسب أن أعاين أوأرى تخطيط ليلٍ فى بياض نهار !

فهو قد مثّل السالف بالليل والوجه بالنهار.

ويقول **أبو علىّ بن معد** صاحب مصر (٦٨٧/٨/٤) :

١٨ واذ لمّتى لم يوقظ الشيبُ ليلها وإذ أثرى فى الغانيات حميد

وهم حين لا يذكرون لفظ « الليل » يشيرون إليه بلفظ « الظلماء » ، كقول **أبى العلاء المعرى** فى مطلع قصيدة يجيب فيها الشريف أبا إبراهيم عن قصيدة له (٤٢٩/١/١١) :

١٩ فكأنى ما قلتُ والبدرُ طفلٌ وشباب الظلماء فى العنفوان

وهم يشيرون إلى الشباب بالسواد ، كقول **أبى الفرج العجلى** (١٥٧/٢/٤) :

٢٠ وهـواهُ يدبّ فى كـل قلبٍ كدبيب السَّوَادِ فى عارضيـه

ويتخذ **أبو العلاء المعرى** من أول السن وآخرها مجالاً للمقارنة فيقول (١٦٧/١/١١) :

٢١ والحمدُ والكِبْرُ ضِدَّانِ اتفاقُهما مثل اتفاق فتاء السِّن والكِبَر

أما عن **المشيب** فنجد نماذج كثيرة لاستخدامه استخداماً بيانيًّا فمن أمثلتها : قول **أبى العلاء** من قصيدة يمدح بها الشريف أبا إبراهيم العلوى ، ويشبه فيها الرخم الأبيض فوق الغبار الأسود بالشعرات البيض فى مفارق أسوّد (٣٦٤/١/١١ ، البيت ٢١) :

٢٢ كأنَّ الأنوق الخرس فوق غبارهِ طوالعُ شيبٍ فى مفارقِ أسْود

وقوله أيضاً (٤٣٨/١/١١ ، البيت ١٧) :

٢٣ ثم شاب الدُّجى وخاف من الهجر م فغطّى المشيـبَ بالزعفـران

وفى درعيته السادسة يشبه المعرى بياض الدرع وبياض السيف بالشيب فيقول : (١٧٧٨/٤/١١ ، البيت ١١) :

٢٤ ومرّتْ شيبها فلاق مشيب السيف م ذُلاًّ أن مسَّ منها قتيرا

ويقول **البحترى** من قصيدة يمدح بها أبا نهشل محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسى (١٩٩١/٣/٤٦ ، البيت ٢٩) :

٢٥ فى شُعلةٍ كالشيب لاح بمفرق غزلٍ لها عن شيبه بِغَرامِهِ

ويقول **أحمد شوق** من أبيات له فى وصف قصر أنس الوجود وقد كادت المياه تغرقه (٤٠٥/١٣) :

٢٦ شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون مازال غضّا

ويشبه **أبو فراس** ضوء الفجر بالمشيب فيقول (٦٩/١/٤) :

٢٧ خليلى شُدّالى على ناقتيكُما إذا مابدا شيبٌ من الفجر ناصِلُ

ويشير الشعراء إلى المشيب يريدون به مرور زمن طويل ، كقول **حفنى ناصف** (٣٥٣/١٣) :

٢٨ برَزتْ فى سـحر البيـا نِ وشـاب فيـه مفرق

وقول أبى فراس (١١/٢/٥٠٢ ، ٤/١/٩٠) :

٢٩ مددنا عليه الليلَ والليلُ راضع إلى أن تحلىّ رأسُه بمشيب

وقول أبى العلاء المعرى (١١/٢/٦٥١) :

٣٠ أقول وقد طال ليلى علىّ أما لشباب الدجى من مشيب ؟

وقول الراجز (٣٩/٣٨) :

٣١ لكل دهرٍ قد لبست أثوباً حتى اكتسى الرأس قناعاً أشيبا

ونجد تمثيلاً فى قول الشاعر (١٤/١/٢٧٨) :

٣٢ فنحن أخٌ لم تلق فى الناس مثلنا أخاً حين شاب الدهرُ وابيضّ حاجبه

ويستخدم حافظ جميل ، الشيب وصفاً لطول مكوث الاستعمار البريطانى بوطنه العراق فيقول (٣١/٧٣) :

٣٣ للهِ دَرُّكَ أشيباً عبلاً يبلى الزمانُ وأنت لاتبلى !

٣٤ من كان مثلك عبد بهمته لايشتكى ضعفاً ولاهزلا !

كذلك نجد أن الصلع ، وهو البديل للشيب أو المصاحب له – يُستخدم أيضاً استخداماً بيانيًّا ، فيقول عمرو بن معد يكرب (٢١/١١٦) :

٣٥ وسوق كتيبةٍ دلفت لأخرى كأنّ زهاءها رأسٌ صليعُ

ونجد المشيب وبياضه يُشبَّه بهما فى عدد من الأبيات ، منها قول السّرىّ الرَّفاء من أبيات يصف باقى زجاجة الكأس من أعلاها إذا كانت ناقصة من الشراب (٤/١١/٩٦٨) :

٣٦ كأن أعاليها بياض سوالفٍ يلوحُ على توريد جيب مُوَرَّدِ

وقول صفى الدين الحلى من أبيات له فى فرس أدهم مُحجَّل (١٥/١/٢٠٨) :

٣٧ فكأنه صِبْغُ الشبيبة هابَهُ وَخْطُ المشيب ، فجاءه من أسْفَلِ

وحين يصفون الليل يشيرون إلى شيبه وهو مجاز عن طلوع صبحه ، كقول أبى العلاء المعرى (١١/٢/٥٤٥) :

٣٨ من الزِّنج كَهْلٌ شاب مَفْرِقُ رأسِهِ وأوثِقَ حتى نهضُهُ متثاقِلُ

وهم يكنون عن المشيب بالفجر : كقول **مهيار الديلمى** (٨٧/٢٩) :

٣٩ مالسارى اللهو فى ليل الصبا ضَلَّ فى فَجْرٍ برأسى وَضَحَا ؟

وكما يصف الشعراء الشباب بالليل فإنهم يصفون المشيب بالنهار ، ونجد **ابن المعتز** يتحدث عن وجوب الارعواء عند المشيب مستخدماً هذه الأوصاف فيقول (١٢٣/١/١٥) :

٤٠ ولقد قَضَتْ نفسى مآربها وقضيتُ غيًّا مرةً ورَشَدْ

٤١ ونهارُ شيب الرأس يوقظُ مَنْ قد كان فى لَيْل الشبابِ رَقَدْ

ويقول **الفرزدق** (٢٦٧/١/١٤) :

٤٢ والشيبُ ينهضُ فى الشباب كأنّه ليلٌ يصيحُ بجانبيه نهارُ !

كذلك نجد أن الشاعر المصرى **عبد الرحمن شكرى** يستخدم مشاعر الفزع التى تنتاب الإنسان لدى رؤيته المشيب فى وصف فزعه من رؤية ضوء القمر على القبور فيقول (١٠١/٣١) :

٤٣ إنى رأيتُ بياض صوتك موهناً فوق القبور كعارض يتهلَّلُ

٤٤ ففزعت من ذاكَ البياض كأنه لون المشيب على الذوائب ينقلُ

وهذا الفزع عند رؤية المشيب نجده مجالاً للتشبيه أيضاً فى قول **أبى العلاء المعرى** (١٤٩١/٤/١١ - ١٤٩٢ ، الأبيات ٤ - ٦) :

٤٥ دع الطير فوضى ! إنما هى كلُّها طوالبُ رِزْقٍ لا تجىء بمُفْظَعِ

٤٦ كعصبة زنجٍ راعها الشيبُ فازْدَهَتْ مناقيش فى داجى الشبيبة أفْرَعِ

٤٧ بَغَتْ شعراتٍ كالثغامِ فصادفت حوالِك سُوداً ماحَلَلْنَ لمُرْتَعِ

وفى شرح هذه الأبيات يقول البطليوسى إن المعرى شبه الغربان بعصبة من الزنج ظهر فى ظهورها شيب أفزعها ، فأرادت أن تنتف الشعرات البيض ، فأخطأتها ونتفت الشعرات التى يجب ألا تُنتف ، وإنما قال ذلك لنتف الغربان لريشها الأسود .

وفى المجال البيانى أيضا يقول **السرىّ الرفّاء** (٩٢٦/١٠/٤) :

٤٨ وغرائب مثل السيوف إضاءةً وَجَدَتْ مِنَ الفِكَرِ الدقاقِ صياقلا

٤٩ فلوِ استعار الشيبُ بعض جمالها أضحى إلى البيض الحِسان وسائِلا

ويعمد الشعراء فى المجال البيانى أيضاً إلى ذم المشيب ، كقول **أبى الطيب** يمدح نفسه (٩٣/٢٩) :

٥٠ ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفى أنا الثريا وذانِ الشيبُ والهَرَمُ

ويقول عن الهرم (٢٩/٩٣) :

٥١ أتى الزمانَ بنوه فى شبيبة فسرّهم وأتيناه على الهَرَمِ !

وفى مجال التشبيه يصف **المتنبى** الرضا بشخص كرهاً كأنه الرضا بالشيب الذى نرضى به قسراً ، فيقول (٤/٤/٢٩٠) :

٥٢ رَضُوا بِكَ كالرِّضا بالشَّيبِ قَسْراً وقد وخط النَّواصى والفروعا !

وفى مجال إرسال الحكمة بأن الموت ليس له علاقة بالشباب أو المشيب ، وأن الشاب الأسود اللمّة قد يموت قبل من أصيب بالشيب العميم يقول المتنبى (٤/٤/٣٣٤)

٥٣ ولقد رأيتُ الحادثاتِ فلا أرى يَقَقاً يُميتُ ولاسواداً يَعْصِمُ !

ويقول **السرّى الرفاء** فى وصف البرد (٤/١١/٩٦٧) :

٥٤ يومٌ خلعتُ به عِذارى فعريتُ من حُلَلِ الوقار

٥٥ وضحكتُ فيه إلى الصِّبا والشيبُ يضحكُ فى عِذارى

وينسب **أبو النجم** الشيب إلى الأسنان فى قوله (٢١/١١٢/٤٦٣) :

٥٦ إن يَكُ أمسى الرأسُ كالثَّغام وشاب أسنانى من الأقوامِ

كذلك يستخدم الشعراء عدداً من المعانى الخاصة **بالشيب المبكر** استخداماً بيانيًّا ، فيقول **أبو العلاء المعرى** من قصيدة يجيب فيها أبا القاسم على بن الحسين بن جلبات عن قصيدة مدحه بها (١١/٢/٥٠١ ، البيت ٤٧) :

٥٧ رجا الليلُ فيها أن يدوم شبابهُ فلما رآها شابَ قبل احتلامه !

ويقول من قصيدة يرثى بها أمه ، فيصف ليلاً يشيب الوِلْدانَ فيه لما فيه من أهوال (١١/٤/٣٥٦ ، البيت ٤٣) :

٥٨ وليلاً تُلحق الأهوالُ منه بفودِ الشيخ ناصيةَ الغُلام

ويقول **ابن خفاجة** يصف السرى فى ظلمة الليل الحالك المنبعثة فى كل ركن من أركان الفضاء ، ومايوحيه هذا المنظر من خوف ورهبة (١٦/٢/١٢٩) :

٥٩ قد شاب من طرف المجرة مَفْرِقٌ فيه ومن خَطِّ الهلالِ عِذارُ

ويتحدث ابن زيدون عن الشيب المبكر الذى يصيب الكبد من الهموم فيقول من قصيدة كتبها إلى صديقه أبى بكر بن مسلم عاتباً لأنه عابه لفراره من السجن :

٦٠ هرمت ومالِلشيب وَخْطٌ بمفرق ولكنْ لشيب الهمِّ فى كبدى وَخْطُ

أما عن **الخضاب** فقد استخدمه الشعراء استخداماً بيانيًّا فى مواطن عدة : فنحن نجد أن **أبا العلاء المعرى** يشبه بياض الدرع بالشيب ، والدم الذى عليه بالخضاب ، وذلك فى درعيته التاسعة على لسان رجل سأل أمه عن درع أبيه (١١/٤/١٨٥٥ — ١٨٥٦ ، الأبيات ٢٠ — ٢٣) ، ويلاحظ أنه يشير أيضاً إلى الشيب المبكر ، يقول أبو العلاء :

٦١ ذاتُ قتير شابت بمولدها ولم يكن شيبُها من القِدمِ

٦٢ فما عددنا بياضها هرماً حين يُعدُّ البياضُ فى الهرم

٦٣ ماخضبته المهنَّداتُ لها ولا العوالى سوى رشَاشِ دم

٦٤ فاعجب لرؤياكَ غير ناسكةٍ قد غُيِّرت بالصَّبيب والكتَم

ويقول عن إخفاء الخضاب للمشيب ، من قصيدة له (١١/٤/١٧٢٠ — ١٧٢٢) (البيتان الثانى والثالث) :

٦٥ وأنِّى لايُغيِّرُ لى قتيراً خِضابٌ كالمُدام بلا مِزاجِ

٦٦ منعتُ الشيب من كتم التَّراق ولم أمنعه من خِطرِ العَجاج

والبيتان من درعيته الثالثة قالها على لسان درع تخاطب سيفاً . ويقول التبريزى فى شرحها : القتير ابتداء الشيب ، والشيب إذا خضب أثر فيه الخضاب وتغيّر ، وقتير هذه الدروع لايغيره الخضاب الذى ذكره وهو الدم ؛ لأن السيف لايعمل فيه فيجرى عليه دم ويغيِّره .

ومن قصيدة ثالثة لأبى العلاء يشير فيها إلى قصيدة كان الممدوح قد حُمِّلها ليبلغها بعض الناس فلم يفعل ، يقول عن سرعة افتضاح الخضاب (١١/٢/٨٨١ ، البيتان ٢١ — ٢٢) :

٦٧ وإذا نضت عن متنها بُرْدَ الصِّبا معشوقةٌ فإلى الجفاء تئول

٦٨ شابت فجُدْ بخضابها وابعث بها عَجِلاً إليه فللخضابِ نصُولُ

وعن افتضاح الخضاب أيضا يقول **محمد الأسمر** فى مجال التشبيه (٢٤/٢٣٥) :

٦٩ كالشيب أعيا من راح يصبغه فلاح يلمع مثل الفجر ناصله

ويقول **أبو فراس** (٣٦٥/١/١١ ، ٩٠/١/٤) :

٧٠ إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه مبادى نُصولٍ فى عذارٍ خضيب

ويتحدث **الملك الأفضل نور الدين على بن السلطان صلاح الدين يوسف الأيوبى** عن سوء الطالع الذى يلازمه ، وكأنه خضاب لاينصل فيقول (٤٥٦/٣/١٢) :

٧١ يامن يسوِّدُ شعره بخضابه فعساه من أهل الشبيبة يحصل

٧٢ هافاختضب بسواد (حظِّى) مرةً ولك الأمان بأنه لاينصل

ويقول **البحترى** فى سرى الليل وطلوع الفجر (٢٦٧/١٣) :

٧٣ والعيس تنصل من دُجاه كما انجلى صبغ الخضاب عن القذال الأشيب

وفى مجال الوصف البيانى نجد فى المادة الشعرية التى لدينا عدداً من التشبيهات يكثر ورودها ؛ كما ترد معها ألفاظ أو مصاحبات لفظية بعينها . وفيما يلى نعدد كلاً منها مع الاكتفاء بذكر مثل أو اثنين أو ثلاثة حيثما أمكن ذلك ، وتوضع أرقامها التى تدل عليها بين قوسين كما سبق أن أوضحنا فى أ — ٢ ، وذلك فيما عدا ألفاظ الشباب والمشيب والخضاب ، فهى من الكثرة بحيث لاتحتاج منا إلى تنبيه .

فيما يتعلق **بالشباب** نجد أنه يوصف بأنه بُرد (١١٠ ، ٨٥١ ، ١٠٢٨) أو ثوب (٣١٦ ، ٩٠٢) أورداء (١٣٦٩ ، ١٤٥٧) يلبس (١١١ ، ١١٣) ويخلع أو ينضى (١٣٦٩) أو يطوى (٨٥١) ، وهو قناع يلبس (٨٨) ، وهو عمامة يتعمم بها (٨٩ ، ٤١١) .

كذلك يشار إلى الشباب بالسواد (١٣٢ ، ٥٠٨ ، ٩٩٦) أو الظلام (١٤٥٦) أو الظلماء (١٤٨١) وبالليل (٤٤٤ ، ٨١٥ ، ١٣٥٩) مقابل النهار للمشيب ، أو الدجى (٣٤١ ، ١٣٥٩) .

ويشبه الشباب بالغراب (٣٥٩ ، ٩٢٦ ، ١٣٧١) مقابل الباز للمشيب ، أو الأبنوس (٤٩١ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨) مقابل العاج للمشيب ، والحمم (٩٠٩) .

كذلك يشار إلى حالة التباهى بسحب الذيل أو جره (١٥٥ ، ٢٤٩ ، ٩٠٢ ، ١٤٥٧) .

أما فيما يتعلق بالأفعال التى تصاحب ذكر الشباب فإنه يقال : إن الشباب ولىّ (١١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٦١) وتولى (٧٢٨ ، ١٤٢٨) وبان (٤٤٢ ، ٧٤٨ ، ١٤٠٨) وأودى (١٨١)

ورحل (٢٣٨) وترحّل (٢٣٣) وودّع (٢٦٨ ، ٣٤٤ ، ٧٢٢) ومضى (٧٢٢).

أما فيما يتعلق بالمشيب فنجد أنه كالشباب يوصف بالبُرد (٥٤٤ ، ١٣٦٨) أو الثوب (٩١٩) أو الخلعة (١٠٨١) ؛ كما يوصف بالقناع (١٣٠ ، ٢٦٠ ، ٥٤١) والعمامة (١١٣٥ ، ١٢٣٦).

كذلك يشار إلى الشيب بالقتير (٦٢٩ ، ٧٧٠ ، ١٣٨٩) والبياض (٦٢٤ ، ٥٨٢ ، ١٥٤٠) مقابل السواد للشباب ، والنهار (٤٠٤ ، ٨١٥) مقابل الليل للشباب.

ويشبه المشيب بالحمامة أو الرخم (٥٢١ ، ٩٧٦ ، ٩٩٨) وبالباز (٣٥٩ ، ٩٢٦ ، ١٣٧١) مقابل الغراب للشباب ، وبالعاج (٤٩١ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨) مقابل الأبنوس للشباب.

كما يشبه بالثغام (٤٧ ، ٥٦ ، ٧٩٥) والريش (٩٠٩) والزبد (٨٤٦) والشعلة (٦٥٤) والنور (٦٣٧) والصبح أو الصباح (٥٦٢ ، ١٤٥٦) والفجر (٦٩ ، ٣٤١) والبدر (١٣٥٩) والكواكب (١٥٣٥) والنجوم (٣٩٠ ، ١٤١٨) والضوء (٢٨١) والكفن (٢٨٣).

ويوصف المشيب بأنه ضيف (٢٩٦ ، ١٢٨٦) ونازل (٣٧٢) وزائر (٤٠١) وهو عند البعض ضيف يرحب به (٦١٩ ، ٩٤٩) وعند الآخرين ضيف لامرحباً به (٢٩٣ ، ٢٩٧) ، وهو الزور يُجفى والمعاشر يجتوى (٢٧٨) ، وهو السمّ (٣٢٣) ، وهو إحدى الميتتين ! (٤٠٧) وإحدى القطيعتين (٧٩١).

ومن المصاحبات اللفظية للمشيب نجد الألفاظ «وخط» (٦٣٠ ، ١٣٦٧ ، ١٣٩٢) ، و«وضح» (٤٣١ ، ٤٦٠ ، ٦٢٣) و«ولع» (١٥٦٣) ، و«ايماض» (٦٢٩ ، ١٤٤٦).

أما فيما يتعلق بالأفعال التي تصاحب ذكر المشيب فإنه يقال : ابيضّ (٦٧٩) ، واشتعل (٢٧٢ ، ٧٦٦ ، ١٢٨٧) ، وغلّس (١٣٥٦ ، ١٥٣٨) ، وضحك (٥٥٢) ، وتبسم (٦٢٩ ، ١٤٥٦) ، وتشعشع (٢٨١) ولفّع الرأس (٣٤٩) ، وانتضى (١٥١٢ ، ١٥٦٢).

ومن المصاحبات اللفظية الخاصة بالمشيب تلك التي تدل على مكان حلوله كالفود (٤٨٨ ، ١٤٣٧ ، ١٥٥٨) ، والمفرق (٤٧٧ ، ٦٥٤ ، ١٤٨٠) ، واللمّة (٤٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٧٦) ، والعذار (٥٢٥ ، ٦٧٨ ، ١٣٩٥) ، والعارض (٧١٨ ، ٧١٩ ، ١٢٣٠) ، والقذال (٤٧٧ ، ٦٨٥ ، ١٣٧٤) ، والرأس (٩٠٤ ، ١٣٨٥) ، والغدائر (٦٨٦) ، والذوائب (٤٨٩ ، ١٢٧٨ ، ١٣٧٦).

ويلاحظ أن هذه المصاحبات اللفظية وتلك التي سقناها آنفاً ترد في المادة الشعرية بصيغ

مختلفة من حيث الإفراد والتثنية والجمع ، أو ترد فى صيغ المشتقات على اختلافها .

وثمة مصاحبات لفظية محدودة الدوران ، وهى تلك التى ترد مصاحبة للخضاب : فمع الخضاب يأتى ذكر الخِطْر (٩٤١ ، ٩٥٥) ، والكتم (٦٤) ، والأصول (٩٦٥) ، والنصول (٦٩ ، ٩٠٧ ، ٩٦٧) ، كما ترد ألفاظ الكبر والهرم والكهولة مصاحبة لوصف آيات الكبر .

البـاب الأول

«ألا ليت الشباب يعود يوماً» !

الفصل الأول

الشباب

١ — أ : مرحلة الشباب :

يجيء تحديد فترة الشباب على لسان **أبي العلاء المعرى** ، إذْ يقول (١٦٤/٣٦) :

٧٤ ومابعد مَرِّ الخمسَ عشْرة من صبًا ولابعد مَرِّ الأربعين صِباءُ

وفى بيت آخر يحدد عهد الشباب بأنه الفترة بين الصِّبا والمشيب فيقول (١٧٧/١/١١) :

٧٥ وعيشِيَ الشبابُ وليس منها صِباى ولاذوائبِيَ الهِجانُ

٧٦ وكالنارِ الحياةُ فمن رمادٍ أواخرُها وأولُها دُخانُ

١ — ب : مدح الشباب :

يرى الشعراء فى الشباب عهد اللهو والمراح ، والقوة والفتوة ، والصحة والعافية ، والسرور والغبطة ، ولهذا فهم لايفتئون يمدحونه ويذكرون أيامه ، فيقول **الأحوص** (١٣١/٣/١٠) :

٧٧ إن الشباب وعيشنا اللّذّ الذى كُنّا بِهِ زمناً نُسَرُّ ولجذلُ

ويقول **أبو العتاهية** (١٠٦/٧) :

٧٨ إن الشباب حجة التَّصابى روائح الجنة فى الشباب

ويقول **عبد الله بن الأبرص** (٢٨٤/٩) :

٧٩ دَرَّ دَرُّ الشباب والشعر المسودّ م والضامرات تحت الرحال[1]

ويحدثنا **أبو العلاء المعرى** عن نعمة الشباب ووجوب معرفة قدرها ، وكيف أن الشبيبة يتمناها جميع الحيوانات على اختلافها من الجن والإنس والنعم ، والطيور السحم ، والظباء العُفْر ، فيقول (١٩٧١/٥/١١) :

(١) جاء فى مجالس ثعلب ٢ /٤٣٤ أن البيت لأبى العباس ، وورد لفظ « الأسود » بدلا من « المسود » ، ولفظ « الضامزات » بالزاى المعجمة .

٨٠ تنكّرتَ فاعرف للشبيبة موضِعًا لكلِّ ضميرٍ من هَواهُ وساوسُ
٨١ تمناه إنسيٌّ وأعْيَسُ بازلٌ وأسْحم طيارٌ وأعْفَرُ كانِسُ

والشعراء إذ يمتدحون الشباب ، نراهم يحضون على التصابى والتمسك بحلاوة الشباب ، من ذلك قول الشاعر (٢٢/٢٠٩) :

٨٢ كُنْ لأخلاقِ التَّصابى مستمريًا ولأحوالِ الشبابِ مستحلياً

وقول أحمد شوقى وهو يمدح الشباب ويذم المشيب (٢٤/٢٢٨) :

٨٣ جارِ الشبيبةَ وانتفع بجوارها قبل المشيب فماله من جار

وإن مجرد ذكرى الكبير شبابه تجعله يفيض حيوية وطرباً : كقول النحويين (٣/٤/٤٦) :

٨٤ قالوا كبرت فقلت إنَّ ، وربما ذكر الكبيرُ شبابه فتطرّبا

ويرى السرّى الرّفاء أن طيب العيش يذهب بذهاب الشباب فيقول (١٤/١١/٩٧١) :

٨٥ فالعُيش -- فى ظلِّ أيام الصِّبا فإذا ودَّعْتَ طيبَ الشبابِ الغَضِّ لم يطب

ويصف الحسن جهل الشباب ورونقه وزينته ، وسواد الشعر فيه قبل أن يرقعه الخضاب فيقول (١/٢/٣٥٢) :

٨٦ ولداتى إذ ذاك فى طاعة الجهْـ ـل وقوتى من الصِّبا إمراءُ
٨٧ يِّربَ عَيْشٍ لريطتى فضلُ ذَيْلٍ ولـرأسى ذؤابـةٌ فَـرْعـاءُ
٨٨ بقناع من الشبابِ جديدٍ لم يرقِّعْهُ بالخضاب النساءُ
٨٩ قبل أن يلبس المشيب عِذارىَّ م وتَـبْلى عمامتى السّوداءُ

وقال بعضهم يعبر عن حبه للسواد ، لأنه لون شبابه (٧/١١٥) :

٩٠ أهوى الشبابَ لأن شيبى أبيضٌ يردى الفتى وأحب لون شبابى

١ — ج : ذم الشباب :

إن الشعراء الذين يذمون الشباب يرون أنه مطية الجهل ، وأنه جنون ، وأنه عهد الغىّ والإثم وارتكاب الذنوب والمعاصى ، ومن أمثلة هذا كله قول النابغة الذبيانى (٧/١٠٧) :

٩١ وإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مطية الجهل الشـبـاب

وقوله (٦٠/٣/٤٥) وكأنما خاله النعمان بن المنذر :

٩٢ فإنك كالليل الذى هو مُدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول ابن أبي فنن (٣٦٠/٢/١)

٩٣ قالت عهدتُك مجنوناً فقلتُ لها   إن الشباب جنون برؤه الكِبَرُ

وقول **حسان بن ثابت** (١٣٨٧/٣/١١ ، ويروى أيضاً لابنه عبد الرحمن كما فى الحيوان ١٠٨/٣) :

٩٤ إن شرخ الشباب والشعر الأسْـ   ـود مالم يعاص كان جنونا

ويصف **أبو الطيب محمد بن حاتم المصعبى** كيف يسوّد الشباب الصحف بالذنوب فيقول (١٠٧/٧) :

٩٥ لم أقل للشباب فى كنف الله   م ولاستره غـداة استقلاَّ

٩٦ زائراً لم يزل مقيماً إلى أن   سَوَّدَ الصحف بالذنوب وَوَلىَّ

ويقول **الشاعر** (٨٩/٥٧) :

٩٧ ولقد نزعتُ مع الغواة بدلوهم   وأسمت صرح اللهو حيث أساموا

٩٨ وبلغتُ مابلغ امرؤ بشبابِهِ   فإذا عُصارةُ كل ذاك أثام !

وعن ذكريات الشباب المؤلمة يقول **ابن الرومي** من قصيدته فى عبيد الله بن عبد الله التى عنوانها «ذكرى الشباب» (١٩٠/١٧) :

٩٩ يذكّرنى الشبابُ هوانَ عتْبى   وَصَدَّ الغانيات لدى عتابى

١٠٠ يذكّرنى الشبابُ سهام حَتْفى   يُصِبْنَ مقاتلى دون الإهابِ

ويرى الشعراء أن الشباب سراب خادع يملأ النفس بالمنى ، ثم يترك المرء رهين مااقترف فى شبابه من ذنوب ، فنسمع **أبا الأسود** يخاطب الشباب قائلاً (٣٢٦/٢/٤٩) :

١٠١ غَدَا منك أسبابُ الشباب فأسرعا   وكان كجارٍ بان يوماً فَودَّعا

١٠٢ فقلتُ له فاذهب ذميماً فليتنى   قتلتُكَ عِلْما قبل أن تتصدَّعا

١٠٣ جنيتَ علىّ الذنب ثم خذلتنى   عليه فبئس الخَلّتان هُما معا

١٠٤ وكنت سرابًا فاضحاً إذ تركتنى   رهينة ما أجنى من الشَّرِّ أجمعا

ويقول إيليا أبو ماضي على لسان شاب يريد أن يسرع به الزمن ليغدو شيخاً حكيماً ، فيتخلص من أحلام الشباب التي يشقى بها كثيراً ، فيخاطب ربه قائلاً (٢٨١/١/٤٨) :

١٠٥ عبء على نفسي هذا الصبيّ م الجائشُ المستوفز الطّامي

١٠٦ يزرع حولي زهرات المنى وشوكها في قلبيَ الدّامي

١٠٧ خُذْهُ وخذ قلبي وأحلامه فــإنني أشقى بــأحلامي

١٠٨ وازرع نجوم الشيب في لمّتي فيــنجلي حِندِسُ أوهامي

١ — د : البكاء على الشباب :

لايفتأ الشعراء يذكرون شبابهم ، ويبكونه ويتحسرون عليه ، ويتمنون عودته ، وهم يتشبثون به وإن كانوا يعلمون أن ذهابه بلاعودة ، وأن أيامه قصيرة سرعان ماتولىّ .

ونبدأ ببيت لأبي العتاهية هو الذي يسبق البيت رقم (١) الذي اتخذناه إطاراً لبحثنا هذا ، إذ نسمعه يقول (٤٢٩/٨) :

١٠٩ عَرِيتُ من الشباب وكان غضًّا كما يَعْرَى من الورق القضيبُ

ويقول ابن الرومي (١٠٧/٧) :

١١٠ أيابُرْدَ الشباب لكنت عندي من الحسنات والقسم الرغاب

١١١ لبستك برهةً لبس ابتذالٍ على علمي بفضلك في الثياب

١١٢ ولو ملكت صونك فاعلمنه لصنتُكَ في الحرير من الغياب

١١٣ ولم ألبسك إلاّ يوم فخرٍ ويوم زيارة الملك اللباب

ونسمع تاج الدولة أبا الحسن أحمد بن عضد الدولة يقول (٩/١١/٤) :

١١٤ هَبِ الدهرَ أرضاني وأعتب صرفُه وأعقب بالحسنى من الحَبْس والأسْرِ

١١٥ فمَنْ لي بأيام الشبابِ التي مضتْ ومَنْ لي بما أنفقتُ في الحبْسِ مِنْ عُمري؟

ويقول محمود سامي البارودي يتشوق وهو في المنفى (٨٥/١/١٥ ، ٤٩٦/٢/١٥) :

١١٦ رُدُّوا عليَّ الصِّبا من عصريَ الخالي وهل يعودُ سوادُ اللّمة البالي ؟

ويقول **الشاعر** (٦٥٥/٢/١١) :

١١٧ زمانُ الصِّبا ليت أيامنا   رجعن لنا السالفاتِ القصارا

ويقول **ظافر الحداد** (٩١/٣٢) :

١١٨ أسَفِى على ورد الشباب الزائل   أسفاً يطولُ عليه عضّ أنامل

١١٩ ولّى فلا طمع لعطفة هاجرٍ   منه ولا أمل لأوبة راحل

ويقول **لبيد** (٣٤٩/١٠٨/٢١) :

١٢٠ وتبكى على إثر الشباب الذى مضى   ألا إن أخدان الشباب الرعارع

ومن أكثر الشعراء بكاء على الشباب وتحسراً عليه **أحمد بن محمدبن عبد ربه** الأندلسى ، فقد وجدنا له على سبيل المثال نحو خمسة وأربعين بيتاً فى هذا المعنى نورد منها مايلى ، يقول ابن عبد ربه (٨٤٢/٩/٤) :

١٢١ وَلّتْ ليـالى الصِّـبا محمودةً   لو أنها ترجع تلك الليالْ !

ويقول (٨٣٢/٩/٤) :

١٢٢ وَلّى الشبابُ وكنتَ تسكنُ ظِلَّهُ   فانظر لنفسك أىَّ ظِلٍ تسْكُنُ

١٢٣ وأتْه المشيبَ عن الصِّبا لو أنه   يُدلى بحجته إلى من يُعْلِنُ

ويقول (٨٣٢/٩/٤) :

١٢٤ كنتُ أليفَ الصِّبا فودَّعنى   ودَاعَ مَنْ بانَ غيرُ مُنْصرفِ

١٢٥ أيامَ لهوى كظلٍّ إسحِلةٍ   وإذ شبابى كروضة أنف

ويقول (٢٩٦/٦/١) :

١٢٦ وَلّى الشبابُ فقلتُ أندبُه   لامثل ماقالوا ولاندبوا

١٢٧ «دِمَنٌ عَفَتْ ومحا معالِمها   هطْلٌ أجَشٌّ وبارعٌ تَرِبُ»

ويقول وهو يذكر نعمة الشباب ويتمنى لو كانت تدوم (٣٥٣/٢/١) :

١٢٨ قالوا شبابُكَ قد مَضَتْ أيّامُهُ   بالعيْش قلتُ وقد مَضَتْ أيَّامى

١٢٩ لله أيَّةُ نعمةٍ كان الصِّبا !   لو أنها وُصِلَتْ بطولِ دَوَام

١٣٠ حسر المشيبُ قناعَهُ عنَ وجْهِهِ   وَصَحا العواذِلُ بعد طولِ ملامِ

١٣١ فكأن ذاك العيش ظلٌّ غمامةٍ   وكأن ذاك اللهو طيف منام

ويقول (١/٢/٣٥٣)[٢]

١٣٢ شبابي كيف صرتُ إلى نفاد   وبُدِّلْتُ البياضَ من السوادِ
١٣٣ وما أبقى الحوادث منك إلاّ   كما أبْقَتْ من القمر الدّآدِى
١٣٤ فراقكَ عَرَّفَ الأحزانَ قلبى   وفَرَّقَ بين جَفْنِى والرُّقاد
١٣٥ فيالنعيم عيشٍ قد تولّىّ   ويالغليلِ حُزنٍ مُستفادِ !
١٣٦ كأنىّ منكَ لم أَرْبَعْ بربْعٍ   ولم أَرْتَدْ به أحلى مَرَادِ
١٣٧ سقى ذاك الثرى وَبْلُ الثريا   وغادى نبتةً صوبُ الغَوادى
١٣٨ فكم لى مِنْ غليلٍ فيه خافٍ   وكم لى من عويل فيه باد
١٣٩ زمانٌ كان فيه الرشدُ غيّا   وكان الغىُّ فيه من الرشادِ
١٤٠ يُقتِّلُنى بدلّ مِنْ قتولٍ   ويُسعِدُنى بوصْلٍ مِنْ سُعَادِ
١٤١ وأجْنُبُهُ فيعطينى قيـاداً   ويجنبنى فأعطيه قيـادى

ويقول (١/٦/٣٤٠ ، ٤/٩/٨٥٧) :

١٤٢ أما الشـباب فَوَدَّعَتْ أيامُهُ   ووداعُهُنَّ مُوَكّلٌ بوداعى[٣]
١٤٣ لله أيامُ الصِّبا لو أنها   كَرَّتْ عَلَىَّ بلذةٍ وسَماعٍ !

وفى تحسره على الشباب نجد أن ابن عبد ربه يتحدث عن عدم الارعواء بعد أن وَلىَّ الشباب فيقول (٤/٩/٨٦٠) :

١٤٤ ألا يـازين قلبي للشـباب م الـعَـفْـر اذْ وَلّـى[٤]
١٤٥ جـعلتُ الغىَّ سِـرْبالى وكان الرشـد لى أوْلى

ونجد **جميل بن معمر** يتمنى أن يعود الشباب ، لأنه عهد الهوى ولقاء الأحبة فيقول (٥/٨/١٠٣) :

١٤٦ ألا ليت ريعان الشباب جديدُ   ودَهْراً تولّى يابثين يعودُ[٥]

---

(٢) يلاحظ أن هذه الأبيات وردت مختلفة قليلاً فى يتيمة الدهر ٩ /٨٣٣ .
(٣) وردت كلمة « بوداعى » فى يتيمة الدهر ٩ /٨٥٧ ، أما فى العقد الفريد ٦ /٣٤٠ فقد وردت كلمة « بوداع » .
(٤) ورد فى العقد الفريد ٦ /٣٤٢ لفظة « دين » بدلا من « زين » و « الغضّ » بدلا من « العفر » .
(٥) ورد فى المنتخب ٢ /١٣٨ « أيام الصفاء » بدلا من « ريعان الشباب » .

كما نجد أحمد شوقى يحنّ إلى ذكريات الصبا وأيام أنسه ومراحه فيقول (٤٠/٢٢) :

١٤٧ اختلاف الليل والنهار يُنسى   اذكرا لى الصِّبا وأيام أنسى

١٤٨ وصفا لى ملاوةً من شباب   صورت من تصوراتٍ ومَسّ

١٤٩ عصفت كالصّبا اللعوب ومرَّتْ   سِنة حلوة ولذة خلس

ويرى قعنب بن أم صاحب أن عهد الهوى يولّى إذا ماولّى الشباب فيقول (١٩/٣٥) :

١٥٠ علقت سلمى على عصر الشباب فقد   أودى الشباب وسلمى الهم والحزن

كذلك فإن طيب العيش يولّى إذا ولّى الشباب ، كقول ابن أحمر (١٨٠/٢/٣) :

١٥١ بانَ الشبابُ وأفنى ضعفَه العُمُرُ   لله درّى ! فأىَّ العيش أنتظر ؟

وقول الشاعر يتحسر على عهد اللهو والعبث (٥٠٣/٨) :

١٥٢ لعمرى لئن حلّئت عن منهل الصِّبا   لقد كنت ورَّاداً لمشربه العذبِ

١٥٣ ليالىَ أغدو بين بُرْدين لاهياً   أميس كغصن البانة الناعم الرطب

وقول آخر (١٩٥/٢٤) :

١٥٤ ياطيب نعمة أيام لنا سلفت   وحُسنَ لذة أيام الصِّبا عودى !

١٥٥ أيام أسحب ذيلى فى بطالتها   إذا ترنّم صوت الناى والعود

كذلك نجد أبياتاً لأبى العلاء المعرى فى التحسر على الشباب والبكاء عليه ، فنسمعه يقول فى إحدى قصائده (٦٥٥/٢/١١ ، البيتان الثالث والرابع) :

١٥٦ إذا الفتى ذَمَّ عيشاً فى شبيبته   فما يقولُ إذا عصرُ الشباب مضى ؟

١٥٧ وقد تعوضت عن كُلٍّ بِمُشْبِهِه   فما وجدتُ لأيام الصِّبا عِوضا !

ويقول من قصيدة له فى الفخر (٣٦٣/٢/١٥ – ٣٦٤) :

١٥٨ وأطربنى الشبابُ غداة وَلّى   فليت سنيه صوتٌ يُستعادُ !

١٥٩ وليس صِباً يُفادُ وراء شيبٍ   بأعوز من أخى ثقةٍ يُفادُ

ويقول فى استحالة عودة الشاب ، من قصيدة له (٣٦٢/٢/١٥) :

١٦٠ ولكن الشباب إذا تولّى   فجهلٌ أن تروم له ارتدادا

١٦١ وأحسب أن قلبى لو عصانى   فعاود ماوجدتُ له افتقادا

وفى هذا المعنى يقول السيد **الحميرى** (٢٣٩/٢/١) :

١٦٢ إذا ما المرء شاب له قذال وعلّله المواشِطُ بالخضابِ
١٦٣ فقد ذهبت بشاشته وأودَى فقُم ياباكِ وابْكِ على الشبابِ
١٦٤ فليس بعائدٍ ما مات منه إلى أحدٍ إلى يوم المآب

ويمضى الشعراء فى بكائهم على الشباب وتمنّى عودته ، حتى إن الشاعر ليتمنى أن ينقص من عمره فى مقابل أن يعود إليه الشباب ، كقول **ابن طباطبا العلوىّ** (٩٧/٣/٤٥) :

١٦٥ ياعيشنا المفقود خذ من عمرنا عاماً ورُدَّ من الصِّبا أياما

غير أن الشاعر يعلم علم اليقين أن الشباب لايعود ، فنسمع **حميداً** يقول : (٥١٧/١١٦/٢١) :

١٦٦ ليس الشباب عليك الدهرَ مرتجعاً حتى تعود كثيباً أُمُّ صَبَّارِ

وفى هذا المعنى يقول **محمود سامى البارودى** (١٠٦/٢٨) :

١٦٧ أين أيام لذّتى وشبابى ؟ أتُراها تعودُ بعد الذهابِ ؟
١٦٨ ذاكَ عهدٌ مضى ، وأبعد شىء أن يَرُدَّ الزمانُ عهدَ التّصابى
١٦٩ كل شىء يسلوه ذو اللّب إلاّ ماضِىَ اللهوِ فى زمان الشبابِ

ونحن نجد أن الشاعر الهذلى « **أبو كبير** » يبدأ أربع قصائد له بأربعة أبيات متشابهة فى اللفظ والبناء وقد أوردنا ثلاثاً منها فى ٢ — د — ٢ الخاص بحتمية المشيب ، وكلها يبدؤها بنداء « زهير » . يقول أبو كبير فى مطلع القصيدة الرابعة (٨٨/٥٠ — ٨٩) :

١٧٠ أزهير هل عن شيبةٍ من مَعْدِلِ أم لاسبيل إلى الشباب الأول

ويقول :

١٧١ أم لاسبيل إلى الشباب ، وذكْرُهُ أشْهَى إلىّ من الرحيق السَّلْسَلِ
١٧٢ ذهب الشبابُ وفات منى مامضى ونضا زهير كريهتى وتبطُّلى
١٧٣ وصحوتُ عن ذكرِ الغوانى وانتهى عُمُرى وأنكرتُ الغداة تقتّلى
١٧٤ أزهير إن يشب القذال فإننى رب هَيْضَلٍ مَرِسٍ لففْتُ بِهَيْضل

وإنه لمما يزيد من حزن الشعراء أن الشباب أيامه قصيرة ، فهى تمضى سراعاً كما يمضى كل شىء

جميل . يقول **حسان بن ثابت** (٥٩٠/٨) :

١٧٥ لم تفتها شمس النهار بشيء   غير أن الشباب ليس يدومُ

١٧٦ لويدبّ الحولى من ولد الذر   م عليها لأندبتها الكلومُ

ويقول **صريع الغوانى** (٣٥٢/٢/١) :

١٧٧ واهاً لأيام الصِّبا وزمانه   لوكان أسعف بالمقام قليلا

١٧٨ سل عيشَ دَهْرٍ قد مضت أيامُهُ   هل يستطيع إلى الرجوع سبيلا ؟

ويصف **ذو الإصبع العدوانى** حاله حين كان فى ريعان الشباب ترمقه الحسان بإعجاب ، ويتحسر على ذهاب الشباب فيقول (٩٦/٣/٥) :

١٧٩ وكنتُ إذ رونق الشباب به   ماء شبابى تخاله شرعا

١٨٠ والحىُّ فيه الفتاةُ ترمقنى   حتى مضى شأو ذاك فانقشعا (٦)

ويقول **سلامة بن جندل السعدى** من قصيدة تبلغ اثنين وثلاثين بيتاً يتحسر على الشباب ويتفجع لذهابه (٢٠/٤/٣) :

١٨١ أودَى الشباب حميداً ذو التعاجيب   أوْدَى ، وذلك شأوٌ غير مطلوب

١٨٢ ولّى حثيثا وهذا الشيب يطلبه   لو كان يدركه ركضُ اليعاقيب (٧)

١٨٣ أودى الشباب الذى مجدٌ عواقبه   فيه نَلَذُّ ، ولا لذاتٍ للشيب

١٨٤ يومان : يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ   ويومُ سَيْرٍ إلى الأعداء تأويب

وقال **أعرابى** (٣٥٢/٢/١) :

١٨٥ لله أيامُ الشباب وعصرُه   لايُستعارُ جديدُهُ فيُعارُ

١٨٦ ماكان أقصر ليلَهُ ونهارَهُ   وكذاك أيامُ السرورِ قِصارُ !

ويرى الشعراء أن الحياة بعد ذهاب الشباب تفقد رونقها ، وتصبح لاطعم لها ، فيقول **ابن أبى حازم** (٣٥٢/٢/١ ، ٦٥٥/٢/١١) :

١٨٧ وَلّى الشباب فخَلِّ الدمعَ ينهملُ   فَقْدُ الشبابِ بفقدِ الروح مُتَّصِلُ

١٨٨ لاتكذبنّ فما الدنيا بأجمعِها   مِنَ الشبابِ بيومٍ واحدٍ بَدَلُ

(٦) أوردنا البيتين اللذين يسبقان هذين تحت ٢ – د – ٢ (حتمية المشيب) بالرقمين ٨٠٣ – ٨٠٤ .

(٧) جاء فى المنتخب ٢٠/١ « يتبعه » بدلا من « يطلبه » .

ويقول **جورج صيدح** الشاعر المهجرى (٨٠/٤٨) :

١٨٩ عهدُ الشبابِ وعهدُ الشام إن مضيا   فكُلُّ ما أبْقتْ الأيامُ حِرمانْ

ويعبر **على الجارم** عن الشقاء الذى يلازم المرء بعد تَولّى الشباب بقوله (١٧١/٢٢) :

١٩٠ ياخليلى خلّيانى ومابى   أو أعيدا إلىّ عَهْدَ الشباب

ويرى **ابن نباتة** أن الحياة بعد زوال الشباب ماهى إلا شرّ ، فيقول متلاعباً بالحروف (٢٢٤/١٦) :

١٩١ آهٍ لشرخ شبابٍ كان لى ومضى   واعتضْتُ شرخاً ولكن ماله خاءُ !

ويقول **دعبل بن على بن رزين** (٢٣٦/٢/١٥ – ٢٣٧) :

١٩٢ أين الشباب ؟ وأية سلكا ؟   لا ، أين يُطلبُ ؟ ضَلّ ، بل هَلَكا

١٩٣ لاتعجبى ياسَلْم مِنْ رَجُلٍ   ضحك المشيبُ برأسه فبكى !

ونجد **أبا نواس** يتحسر على الشباب وكأنما ينعاه فيقول (٨٩/٥٧) .

١٩٤ كان الشباب مطية الجهل   ومحسِّن الضحكات والهزل

١٩٥ كان الجمالَ إذا ارتديتُ به   ومشيت أخطر صيِّت النعل

١٩٦ كان المشَفّعَ فى مآربه   عند الفتاة ومدرك النيل

إلى أن يقول :

١٩٧ فالآن صرتُ إلى مقاربة   وحططتُ عن ظهر الصِّبارحلى

ويرى **المتنبى** أن المشيب إن كان يجىء بالوقار فإن الشباب هو الذى يجدر بنا أن نبكيه ، فيقول من قصيدة له (٣٤٤/٢/١٥) :

١٩٨ فالموت آتٍ والنفوس نفائس   والمستعز بما لديه الأحمقُ

١٩٩ والمرءُ يأمل والحياة شهية   والشيب أوقر ، والشبيبة أنزق

٢٠٠ ولقد بكيت على الشباب ولمّتى   مسودة ولماء وجهى رونق

٢٠١ حذراً عليه قبل يوم فراقه   حتى لكدت بماء جفنى أشرق !

ويبكى **ولى الدين يكن** شبابه بقوله فى إحدى قصائده (٥١١/٢/١٥) :

٢٠٢ بكت عينى الشبابَ وحين جَفّتْ   مدامِعُها غَدَا يبكى الجَنانُ

ويرى ابن الرومي أن البكاء على الشباب أمر لايُلام فيه أحد ، إذ إن المرء لايعرف قدر الشباب إلا حين يولّى ، فنسمعه يقول (١٠٧/٧) :

٢٠٣ لاتلح من يبكى شبيبته إلا إذا لم يبكها بدمِ
٢٠٤ لسنا نراها حق رؤيتها إلا أوان الشيب والهرمِ
٢٠٥ ولــربَّ شيء لايبيّنه وجدانه إلا مع العدم
٢٠٦ كالشمس لاتبدو فضيلتها حتّى تغشى الأرض بالظُّلَمِ

وفى هذا المعنى يقول منصور النّمرى (٢١٩/٤١) :

٢٠٧ ماكنتُ أوفى شبابى كنه عِزّتِهِ حتّى مضى فإذا الدنيا له تبعُ
٢٠٨ أصبحت لم تطعمى ثكل الشباب تشجى لغصته فالعذر لايقع
٢٠٩ ماكان أقصر أيام الشباب وما أبقى حلاوة ذكراه التى تدع !
٢١٠ ماواجه الشيب من عين وإن رَمقتْ إلا لها نبوة عنه ومرتدع
٢١١ قدكدت تقضى على فوت الشباب أسًى لولا يعزّيك أن العمر منقطع !

وإن حزن الشعراء على ذهاب شبابهم ليجعلهم يتمنون لوكان الشباب شيئاً يباع فيشترى ، فيقول جرير (٣٥٢/٢/١) :

٢١٢ ولّى الشبابُ حميدةً أيامهُ لوكان ذلك يُشْتَرى أو يَرْجعُ

ويقول رؤبة بن العجاج (٢٨٦/١/٢) :

٢١٣ ليتَ وهل ينفع شيئاً ليتُ ليتَ شباباً بُوعَ فاشتريتُ

لهذا نجد أن الشعراء حين يحضّون على التمتع بالشباب يرون أن مثل ذلك التمتع أمر طبيعى ، فيقول أبو محمد الحسن التنيسى من قصيدة طويلة فى وصف الروض (٥٨٤/٧/٤) :

٢١٤ فكيف هجرانُ اللذاذات ولم يَبْدُ نهار الشيب فى ليل الشَّعَرْ
٢١٥ والنّسك فى عصر الصِّبا كأنه من قبحه خلعُ عذارٍ فى الكِبَرْ

والشعراء من أجل ذلك يودعون الشباب وداع عزيز راحل ، فيقول حافظ إبراهيم تحت عنوان « وداع الشباب » (٢٥٤/٢٢) :

٢١٦ كم مَرَّ فيكَ عيشٌ لستُ أذكُره ومَرَّ بى فيكَ عيشٌ لستُ أنساه

٢١٧ ودّعتُ فيكَ بقايا ماعلقت به من الشباب وماودعتُ ذكراه
٢١٨ أهفو إليك على ما أقرحتْ كبدى من التباريح أولاهُ وأخراه

ويرى **محمود الوراق** أن مايستحق أن يُعزّى فيه المرء حقًّا هو فقدان الشباب ، فنسمعه يقول (٣٥٢/٢/١ ، ٤٨٤/٨) :

٢١٩ أليس عجيباً بأن الفتى يُصابُ ببعضِ الذى فى يَدَيْهِ ؟
٢٢٠ فمِنْ بين باكٍ له موجَع وبين مُعَزٍّ مـفـدٍّ إليه
٢٢١ ويسلبه الشيبُ شرخَ الشباب فليس يُعزّيه خلقٌ عليه

ولابن **الرومى** عدة أبيات يتناول فيها هذا المعنى ، منها قوله (٣٧٢/٣/١٢) :

٢٢٢ عاصى العزاء عن الشبا بِ فطاوع الدمع الغزير
٢٢٣ كيف العزاء عن الشبا بِ وغصنه الغضّ النضير
٢٢٤ كيف العزاء عن الشبا بِ وعيشه العيش الغرير
٢٢٥ بانَ الشبابُ وكان لى نِـعْـمَ المجاورُ والـعشـير
٢٢٦ بـانَ الشبابُ فلا يدٌ تحوى ولا عينٌ تشير
٢٢٧ ولقد أسـرت به القلو بَ فقلبى اليـوم الأسير

وقوله (٣٧٣/٣/١٢) :

٢٢٨ لعمرك ما الحياة لكلِّ حىٍّ إذا فقد الشباب سوى عذابِ
٢٢٩ سقى عهد الشبيبة كل غيث أغر مجلجل دانى الربابِ
٢٣٠ يذكرنى الشباب جنان عدْنٍ على جنبات أنهارٍ عِذابِ
٢٣١ فيا أسفاً ويا جزعاً عليه ويا حزناً إلى يوم الحسابِ
٢٣٢ أأُفجَعُ بالشباب ولا أُعزّى لقد غفل المعزّى عن مصابى !

وبعض الشعراء حين يتحسر على الشباب الراحل عنه يتعرض للمشيب النازل بساحته ويقارن بين الساكن النازح والساكن القادم ، كقول **عبد الحميد الكاتب** (٣٢٢/٢/٤٩) :

٢٣٣ ترحّلَ ما ليس بالقافِلِ وأعقَبَ ماليس بالآفِلِ
٢٣٤ فلهفى من الخلف النازلِ ولهفى على السلف الراحلِ
٢٣٥ أبكّى على ذا وأبكى لذا بكاء المولّهة الثاكِلِ

٢٣٦ تُبكِّى من ابن لها قاطع وتَبْكى على ابنٍ لها واصِلِ
٢٣٧ تقضَّتْ غواياتُ سُكر الصِّبا وردَّ التقىُّ عن الباطل

وقول **عبد الرحمن بن خالد** أخو الحارث بن خالد (٣٨٤/٢/٦ ، ٣١٢/٣/٥) :

٢٣٨ رَحَلَ الشبابُ وليته لم يَرْحَلِ ومَضَى لطيَّة ذاهب مُتحمِّل
٢٣٩ ولَّى بلا ذمّ وغادر بعده شيباً أقام مكانه فى المنزل
٢٤٠ ليت الشباب ثوى لدينا حِقبةً قبل المشيب وليته لم يَرْحل
٢٤١ فنُصيبُ من لذّاته ونعيمه كالعهد إذ هو فى الزمان الأوّلِ

وإن أشد ما يكون البكاء على الشباب حين يحل الكبر ، وما يصحبه من ضعف فى الجسم وفى السمع والبصر ، فيقول **عمرو بن شأس** (٢١٣/٨/٥) :

٢٤٢ فواندمى على الشباب ووانَدَمْ ندمتُ وبانَ اليومَ مِنّى بغير ذَمْ
٢٤٣ وإذ إخوتى مُرْدٌ وإذ أنا شائخٌ وإذ لا أجيبُ العاذلاتِ من الصَّمَمْ

ذلك لأن الشاعر يرى أن تولّى الشباب إنما هو نذير اقتراب المنية ، وفى هذا يقول **محمود سامى البارودى** (٢٧٨/٢٢) :

٢٤٤ إلامَ يهفو بحلمك الطربُ أبعد الخمسين فى الصِّبا أَرَبُ ؟
٢٤٥ هيهات ولّى الشبابُ واقتربت ساعة ورد دنا بها القرب
٢٤٦ فليس دون الحمام مبتعدٌ وليس نحو الحياة مقترب
٢٤٧ كل امرئٍ سائرٌ لمنزلة ليس لها عن فنائها هرب

ويقول **الشريف المرتضى** فى هذا المعنى أيضاً (٣٧٤/٣/١٢) :

٢٤٨ ألا حبذا زمن الحاجر وإذ أنا فى الورق الناضرِ
٢٤٩ أجرّ ذيل الصِّبا جامحًا بلا آمـــــر ولازاجـــــر
٢٥٠ إلى أن بدا الشيب فى مفرقى فـكـانـت أوائـلـه آخرى

ويقول **الشاعر** (٤٧٧/١١٢/٢١) :

٢٥١ إذا أنا فى عهد الشباب الرائع أجُرُّ بردىَّ إلى المصانع
٢٥٢ هناك أغـلى شُبُمَ الـبراقع

وفقد الشباب قد يكون إحدى المصائب التى تعادل مصيبة فقدان الأحبة بالموت ، كقول **التهامى** فى رثاء ابنه (١٤٨/٢٥) :

٢٥٣ إذا ما تولّى ابنى وولت شبيبتى　　　وولّى عزائى فالسلام على الدهر

وإذ يفقد الشاعر شبابه فيفقد بذهابه كل شىء يجد أنه لم يبق لديه سوى الشعر عزاء ، وهكذا نسمع **خليل شيبوب** يقول (٢٦/٣٤) :

٢٥٤ نسيت وقد رقّ الشباب وعطلت　　　ثغور المنى وانفض ما أنا حاسِبُه
٢٥٥ مواثيق أيام الشباب الذى مضى　　　به العمر وهّاب الشباب وسالبه
٢٥٦ نفضتُ يدى إلا من الشّعر إنه　　　عزائى ، إذا ما الدهرُ حلّت نوائبه

الباب الثاني

« فأخبره بما صنع المشيب »

الفصل الثانى

المشيب

٢ – أ : حلول المشيب

إن الشاعر – مثله فى ذلك مثل سائر الناس – ليتزعج لدى رؤيته أول شعرة بيضاء تخط رأسه ، فهو يدرك أنها بداية الطريق إلى المشيب ، وأنه سوف تتبعها شعرات وشعرات . وفى ذلك يقول **ابن الرومى** (٣٧/٢٩) :

٢٥٧ أول بدء المشيب واحدةٌ تُشعِلُ ما جاورت من الشَّعَرِ
٢٥٨ مثل الحريق العظيم تبدؤه أولُ صَوْلٍ صغيرةُ الشَّرَرِ

ويقول **أبو العلاء المعرى** فى مطلع درعيته الثالثة عشرة يصف حلول المشيب بفوديه (١٨٧٨/٤/١١) :

٢٥٩ غَدَا فَوْدَاىَ كالفَوْدَيْن ثِقْلاً وأضحى الشيبُ بينهما عِلاوَهْ

ويقول **الشاعر** (٣٧٨/٨) :

٢٦٠ أصبح الشيب فى المفارق شاعا واكتسى الرأسى من البياض قناعا
٢٦١ ثم ولّى الشباب إلا قليلاً ثم يأبى القليلُ إلا نزاعا

ويقول **أبو العلاء المعرى** من قصيدة يرثى بها أمه (١٦٨٩/٤/١١ ، البيت السادس) :

٢٦٢ مَضَتْ وكأنى مُرضَعٌ وقد ارتقَتْ بِىَ السِّنُّ حتى شكلُ فودىَّ أشكالُ

ويقول **ابن دريد** (٩٩/٤٠) :

٢٦٣ أما ترى رأسى حاكى لونهُ طرة صبح تحت أذيال الدُّجى
٢٦٤ واشتعل المبيضّ فى مسوَدِّهِ مثل اشتعال النار فى جزل الغضى

ويقول المتنبى (٣٥٥/٤/٤) :

٢٦٥ تغيّر حالى والليالى بحالِها وشبتُ وما شاب الزمانُ الغرانِقُ

ويقول ابن هرمة من قصيدة له (١١٥/٦/٥) :

٢٦٦ رأيت الشيبَ قد نزلت علينا روائعُه بحجة مستقيم
٢٦٧ إذا ناكرتُه ناكرت منه خصومة لا ألدّ ولا ظَلوم
٢٦٨ وودعنى الشبابُ فصرتُ منه كراضٍ بالصغير من العظيم

ويقول على بن جبلة يصف حلول المشيب ويتحسر على الشباب (٩٠/١٨) :

٢٦٩ جلال مشيب نَزَلْ وأُنْسُ شبابٍ رَحَلْ
٢٧٠ طوى صاحبٌ صاحباً كذاك اختلافُ الدُّوَلْ
٢٧١ شبابٌ كأن لم يكن وشيبٌ كأن لم يَزَلْ
٢٧٢ كأن حسورَ الصِّبا عن الشيب حين اشتعل
٢٧٣ زُها أملٍ مونقٍ أطَلَّ عليه أجَلْ
٢٧٤ أعاذِلتِى أقصرى كفاك المشيبُ العَذَلْ
٢٧٥ بدا بَدَلاً بالشبا بِ ليتَ الشبابَ البَدَلْ

ويقول لبيد (٤٩٥/١١٦/٢١) :

٢٧٦ إن تَرَىْ رأسِىَ أمسى واضِحاً سُلِّطَ الشيبُ عليه فاشْتعل

٢ — ب : ذم المشيب

٢ — ب — ١ : سوء منظره

حينما يحل المشيب يبدى الشعراء فزعهم منه ، وكراهيتهم لمقدمه فمنظره قذى فى العين ، تعافه النفس ، وتعرض عنه الأنظار ، وهو ضيف غير مرغوب فيه يحل لامرحباً به . والأبيات التالية تحفل بذم المشيب وتعداد مساويه فيقول أبو تمام (١١٠/٧ ، ٣٧٠/٣/١٢) :

٢٧٧ غدا الشيب مختطًا بفوْدى خُطَّةً طريق الردى منها إلى النفس مَهْيَعُ
٢٧٨ هو الزور يُجْفَى والمعاشر يُجتوَى وذو الإلف يُقْلَى والجديدُ يُرقَّعُ
٢٧٩ له منظرٌ فى العين أبيض ناصِعٌ ولكنه فى القلب أسودُ أسفعُ
٢٨٠ ونحن نرجيه على الكره والرضا وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع !

وفى هذا المعنى يقول **الشريف** (٨٧/٢٩) :

٢٨١ ضوء تَشَعْشَعَ فى سوادِ ذوائبى   لا أستضىء بهِ ولا أستصبح
٢٨٢ بِعْتُ الشبابَ بهِ على مِقَةٍ له   بَيْعَ العليمِ بأنه لايربح

ويقول **الشاعر** (١١٢/٢٤) :

٢٨٣ ها قد غدا من ثياب الشعر فى كفن   وقد تعفت معانى وجهه الحسن
٢٨٤ وكان يعرض عنى حين أبصره   فصرتُ أعرضُ عنه حين يبصرنى !

ويقول **المتنبى** متمنياً لو كان بياض شعره خضاباً (٨٩/٥٧) :

٢٨٥ مُنى كنّ لى أن البياض خضاب   فيخفى بتبييض القرونِ شبابُ

وقد سبق أن روينا **لمنصور النمرى** أبياتاً فى الفصل الأول منها هذا البيت الذى يذم فيه الشيب وقد جاء تحت رقم ٢١٠ :

ماواجه الشيبَ من عينٍ وإن رمقت   إلا لها نبوة عنه ومُرْتَدَعُ

ويبدى الشاعر الهذلى **أبو كبير** كراهيته لسوء منظر المشيب (١٠٠/٥٠ ، الأبيات ٢ – ٧) فيقول فى مطلع إحدى قصائده :

٢٨٦ أزهيرَ هل عن شَيْبَةٍ من مَقْصَرِ   أو لا سبيلَ إلى الشباب المُدْبِرِ؟

ويقول :

٢٨٧ فَقَدَ الشبابُ أبوكِ إلاّ ذكرَهُ   فاعْجَبْ لذلك فِعْلَ دَهْرٍ واهْكَرِ
٢٨٨ أزهيرُ ويْحك مالرأسى كلما   فقد الشباب أتى بلونٍ مُنْكَرِ
٢٨٩ ذهبت بشاشته وأصبح واضِحاً   حَرِقَ المفارق كالُبراءِ الأَعْفَرِ
٢٩٠ ونُضيت مما تعلمين فأصبحتْ   نفسى إلى إخوانها كالمُقْذَرِ
٢٩١ فإذا دعانى الداعيان تأيدا   وإذا أُحاول شوكتى لم أُبصِرِ
٢٩٢ يالهف نفسى كان جدّة خالدٍ   وبياض وجهك للتراب الأعفر !

وإن كراهية الشعراء لسوء منظر المشيب لتبلغ ببعضهم أنه يفضل أن يُقْطع رأسه بالسيف على أن يخطها المشيب ، فنسمع **المتنبى** يقول من قصيدة قالها فى صباه (١٧٨/٣/٣ – ١٧٩ ، ٣٧٣/٣/١٢) :

٢٩٣ ضيفٌ ألمّ برأسى غير محتشم والسيف أحسنُ فِعْلاً منه باللممِ
٢٩٤ أَبْعد ، بَعِدْتَ بياضاً لابياض له لأنت أسود فى عينى من الظُّلَمَ
٢٩٥ بِحبٍّ قاتلتى والشيب تغذيتى هواى طِفلاً ، وشيبى بالغ الحُلُمُ

فالمتنبى يفضل فعل السيف بالشعر على فعل الشيب به لأن الشيب أقبح ألوان الشعر ، وهذا مأخوذ من قول البحترى الذى أوردناه تحت رقم ١٣٧٣ فى الفصل الخاص بالبحترى .

ويقول **السراج الوراق** مضمناً أبياته صدر البيت الأول من أبيات المتنبى المذكورة أعلاه فيقول (٣٨١/٣/١٢) :

٢٩٦ وباخل يشنأ الأضيافَ حَلَّ به ضيفٌ من الصبغ نزال على السقم
٢٩٧ سألته ما الذى يشكو فأنشدنى « ضيفٌ ألمّ برأسى غير محتشم »

وإن بياض المشيب لشيء تعافه النفس ، ولكنه يصبح محبباً إذا كان البياض مما يميز أشياء أخرى يعشقها المرء ، وفى ذلك يقول **حافظ جميل** الشاعر العراقى (٨٠/٣١) :

٢٩٨ يالكِ من بيضاء حبّبت لى حتى بياض الشيب فى رأسى

ومن طريف ما جاء فى ذم منظر الشيب الأبيات ٧ — ١٣ من درعية **أبى العلاء المعرى** التاسعة والعشرين ، على لسان امرأة توصى ابنها بلبس الدرع وترك الزواج. يقول أبو العلاء (٢٠٠٢/٥/١١ — ٢٠٠٣) :

٢٩٩ فحِنَّ إلى المكارم والمعالى ولاتثقل مَطاكَ بعبء حَنَّهْ
٣٠٠ فإنى قد كبرتُ وما كعابٌ ملائمة عجوزاً مُقْسئِنَّهْ
٣٠١ ترى تنّومها وترى ثِغامى فتهزأ مِنْ مُنَهْبلةٍ مُسِنَّهْ
٣٠٢ فإن يبيضَّ بالحدثان فودى فقد أغدو بفَوْدٍ كالدُّجُنَّهْ
٣٠٣ إذا ما السارحاتُ نظرن فيه عجبن لما سَرَّحن وما دَهَنَّهْ
٣٠٤ إذا وقعت مداريها عليه سُتِرن بجنح ليل أو دُفِنَّهْ
٣٠٥ فلا تُطِع الدوالِفَ مُرْسلاتٍ فكم أوقعن فى أرض مِجَنَّهْ !

٢ — ب — ٢ : **المشيب محنة**

ومن الشعراء من يعدّ الشيب مصيبة من المصائب التى تحل بالإنسان فيؤاخى بينه وبين الفقر أو

المرض أو الزواج الفاشل ، أو بينها جميعاً كقول أبي المحاسن الحسن بن نوفل الحلبيّ من أبيات كتبها إلى وزير حلب ابن الموصول المشهور بالجود (٥٦/٨٧) :

٣٠٦ ولاشكوتَ بما أشكو إليك به الفقر والشيب والتزويج والجرب

ويقول صاحب « الغصون اليانعة » فى ذلك : إن الوزير وجّه إلى الشاعر بصداق زوجته التى أراد تطليقها ، ومايشترى به جارية ، وما ينفقه عليها ، ويعالى به الشيب بالخضاب ، والجرب بالأدوية والأغذية :

ويقول ابن نباتة مؤاخيا بين الشيب وفقره (١٦/٢/٢١٤) :

٣٠٧ مشيبٌ وإقتارٌ هو الشيب ثانياً ألا هكذا يأتى الشقاء المكرر !

ويقول أيضا (١٦/٢/٢١٦) :

٣٠٨ لقد أصبحتُ فى حالٍ يسرقّ لمثلها الحجر !

٣٠٩ مشيبٌ وافتقار يدٍ فلا عينٌ ولا أثر

ومن الشعراء من يؤاخى بين الشيب وبين محن أخرى كالكلال ، والعرج . مثال ذلك قول الشاعر (٢١/١١٢/٣٦٥) :

٣١٠ أنت الذى كلفتنى رَقْيَ الدَّرَجْ على الكلال والمشيب والعَرَجْ

ومنهم من يعتبر الشيب جناية الزمان على الإنسان فيقول الوزير المهلبى (٤/١١/١٤) :

٣١١ رَقّ الزمان لفاقتى ورثى لطول تحرّق

٣١٢ وأنالنى ما أرتجى وأجار مما أتّقى

٣١٣ فلأصفحنْ عما أتاهُ من الذنوب السبّقِ

٣١٤ حتى جنايته بما فعل المشيب بمفرق !

٢ – ب – ٣ : المشيب عيب وذنب وهمّ

ويرى أبو العباس الزّوق أن الشيب كله عيب ، فيقول مقارناً بين الشباب والمشيب (٤/٨/٦٧٩) :

٣١٥ قد رابنى من شيبتى ريبُ وقَلّ غرب صبوتى الشيبُ

٣١٦ وكان ثوب الشباب أحسن ملبوساً م بهاه فأخلق الثوبُ

٣١٧ من عابنى بالمشيب قلت له : صدقت ، فالشيب كله عيبُ
٣١٨ طلائع الشيب كلما طلعت شُقَّ على ميّت الصِّبا جَيْبُ

ويرى **العكبرى** أن الشيب ذنب ، فنسمعه يقول (٤٦/٤/٢٦٤١) :

٣١٩ كفاك بالشيب ذنباً عند غايته وبالشباب شفيعاً أيها الرَّجُلُ

وليس الشيب عيباً أو ذنباً فحسب ، وإنما هو يقود إلى السفه ، كقول **واثلة السدوسى** (٨/٤٢٨) :

٣٢٠ رأيتُك لما شِبْتَ أدركك الذى يصيب سراة الأزد حين تشيبُ
٣٢١ سفاهة أحلام وبخل ونائل وفيك لمن عاب المزون عيوبُ

والشيب كذلك سمّ قاتل وإن كان سُمًّا غير مؤلم ، كقول **أعرابى** (٤٩/٢/٣٢٥) :

٣٢٢ أرى الشيبَ مذ جاوزتُ خمسين دائباً يدبُّ دبيب الصُّبح فى غَسَقِ الظُّلَمْ
٣٢٣ هو السمُّ إلا أنه غيرُ مؤلمٍ ولم أر مثل الشيب سُمًّا بلا ألَمْ !

وإن من الشعراء من يشتد حزنهم لحلول المشيب حتى إنهم ليبكون حزناً وإشفاقاً ، فالشيب عندهم غمّ عظيم ، وهمّ مقيم ، وعبء ثقيل ، فيقول **منصور بن الفرج** (١٤/٢/٤) :

٣٢٤ يا بياضاً أذرى دموعىَ حتى عاد منها سواد عينى بياضا !

ويقول **أبو الفتح البستى** (١٦/٢/٢٣) :

٣٢٥ دع دموعى تسيل سيلاً بدارا وضلوعى يَصْلَيْن بالوجد نارَا
٣٢٦ قد أعاد الأسى نهارىَ ليلاً مذ أعاد المشيب ليلى نهارا !

ويقول **ابن المعتز** (٧/٨٤) :

٣٢٧ لا تـدعنى لصـبوحٍ إن الـغبـوق حبيبى
٣٢٨ فـالـليـل لـون شبابى والصـبح لـون مشيبى

غير أن من الشعراء من يرفض البكاء لحلول المشيب ، فيقول **أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى** (٤/١١/١٠١٨) :

٣٢٩ ولست أبكى لشيبٍ قد مُنيتُ بهِ يبكى على الشيب من يأسى على القمر

ويرى الشعراء أن المشيب غمّ ينزل بساحة المرء ، فيفسد عليه عيشه ، فيقول **الشاعر** مستخدماً

الجناس (١١٠/٧) :

٣٣٠ سألت من الأطبة ذات يوم طبيباً عن مشيبى قال : بلغمْ
٣٣١ فقلت له على غير احتشام لقد أخطأت فيا قلت : بل غم

والمشيب بذلك يضيف إلى هموم الحياة همًّا جديداً ، وفى ذلك يقول **الشاب الظريف** (٤٤٢/٢/١٥) :

٣٣٢ حملت تسهُّدى والشيب ، هذا على رأسى وذاك على عيونى

ويقول **الشافعى** رضى الله عنه (١١٠/٧) :

٣٣٣ ولذة عيش المرء قبل مشيبه وقد فنيت نَفْسٌ تولىّ شبابُها
٣٣٤ إذا اسودّ جلدُ المرء وابيضّ شعره تكدر من أيامه مُستطابها

ويقول **ابن عبد ربه** (٣٤٢/٦/١) :

٣٣٥ أطــفت شرارة لهوى ولوت بشــدة عــدْوى
٣٣٦ شُعَلٌ عَلَوْنَ مفارق ومضت ببهجــة سروى
٣٣٧ لما سلكتُ عروضَها ذهب الزحاف بِحَزْوى
٣٣٨ يـأيها الشّادى صَـهٍ لـيست بساعةِ شَدْوِ

ويقول **حبيب بن أحمد الأندلسى** (٤٦٨/٥/٤) :

٣٣٩ ثلاثون من عمرى مَضَيْنَ فما الذى أؤمِّلُ من بَعْد الثلاثين من عُمْرى ؟
٣٤٠ أطايب أيامى مضيْنَ حميدةً سراعاً ، ولم أشعرْ بهنّ ولم أدْرِ
٣٤١ كأن شبابى والمشيب يَروعُهُ دُجَى ليْلةٍ قد راعَها وضحُ الفجْرِ

ونجده هنا قد قرن الشباب بالليل فى سواد لمَّة صاحبه ، والمشيب بالفجر فى بياضها . وإن المشيب ليجلب الأحزان ، إذ هو يبدل التشبيب بالمراثى . وفى ذلك يقول **ابن عبد ربه** (٨٥٣ — ٨٥٢/٩/٤) :

٣٤٢ طلّق اللهــوَ فؤادى ثلاثـاً لا ارتجاعٌ لى بَعْـدَ الثّـلاثِ
٣٤٣ وبياضٍ فى ســوادِ عِذارى بَــدَّل التشـبيب لى بالمراثى

والمشيب مع الهموم محنة ما بعدها محنة ، مقعد المرء عن بلوغ الأمانى فيقول **أبو فراس**

الحمدانى من قصيدة له وهو فى أسر الروم إلى ابن عمه سيف الدولة يعتب ويشكو (٣٥٧/٢/١٥ ، ١٠٨/٢/٤) :

٣٤٤ فلما مضى عصرُ الشبيبة كلُّه   وفارقنى شرخُ الشباب ، فَودَّعا
٣٤٥ تطلَّبتُ بين العتب والهَجْر فُرجةً   فحاولتُ أمْرًا لا يُرامُ مُمنَّعا
٣٤٦ وصرتُ إذا مارُمْتُ فى الخير لذةً   تتبّعْتها بين الهموم تتبُّعا
٣٤٧ وهأنا قد حَلَّى الزمان مفارقى   وتوّجنى بالشيب تاجاً مُرَصَّعا
٣٤٨ فلو أننى مُكِّنْتُ فيما أريدُهُ   من العيش يوماً لم أجِدْ فىَّ مَوْضِعا

والمشيب من السوء بحيث يكون حجة للمرء وعذراً يلتمسه كقول الشاعر (٤٤٧/١١٢/٢١) :

٣٤٩ كيف يرجون سقاطى بعدما   لَفَّعَ الرأسَ مشيبٌ وصَلَعْ

والمشيب يدفع بالفارس المغوار إلى زوايا النسيان ، وبعد أن كان يُدعى إلى الحرب أصبح لايدعى إلا إلى السلم ، وفى ذلك يقول الشريف المرتضى من أبيات له (٣٧٥/٣/١٢) :

٣٥٠ يقولون لا تجزع من الشيب ضلةً   وأسهمه إيّاى دونهم تصمى
٣٥١ وإنى مذ أضحى عِذارى قراره   أعادُ بلا سقم وأجفى بلا جرم
٣٥٢ وسيّان بعد الشيب عند حبائبى   وقفن عليه أو وَقَعْنَ على رسم
٣٥٣ وقد كنتُ ممنَ يشهد الحربَ مرةً   ويُرمى بأطرافِ الرماح كما يَرْمى
٣٥٤ إلى أن علا هذا المشيب مفارقى   فلم يَدْعُنى الأقوامُ إلاّ إلى السِّلْم

٢ – ب – ٤ : المشيب طريق الردى

ومما يبعث على ذم المشيب وكراهيته أنه يرتبط فى وجدان الناس والموتُ ، وهم يعدّونه بداية الطريق نحو المنية ، فقد قال سحيم بن حفص (٤٦٢/٨) : رأى إياس بن قتادة العبشمى شيبة لحيته فقال : أرى الموت يطلبنى وأرانى لا أفوته !

ويعبر الشعراء عن هذا المعنى ، فترد فى أشعارهم ألفاظ « الموت » و «المنية » و « الردى » مقرونة بالشيب ، والنماذج على ذلك كثيرة ، فيقول الشاعر (٩٩/٢٨) .

٣٥٥ دب المشيبُ إلى الشبا   ب دبيبَ ذى خَتْلٍ مُسارِقْ
٣٥٦ إن المشـيب طـليـعـةٌ   للمَوتِ فى كُلِّ الخلائقْ

ويقول آخر (٧/١١٠) :

٣٥٧ من شاب قد مات وهو حىّ   يمشى على الأرض مشىَ هالك
٣٥٨ لو كان عمر الفتى حسابًا   لكان فى شيبه كذلك

ويقول **ابن نباتة** من قصيدة يمدح بها المؤيّد (١٥/٢/٤٥٣ – ٤٥٤) :

٣٥٩ مالى وللّهو بعد مفارق   قد نفّرتْ غربانها بيزاتها
٣٦٠ والشيبُ فى فودى يخطّ أهِلَّةً   معنى المنون يلوح من نوناتها
٣٦١ سقياً لروضاتِ الشبابِ وإن جنَتْ   هذى الشجونَ على قلوب جُناتها

ويقول **عبيد الله بن عبيد الله بن طاهر** عن غانية تعجبت من شيبه (٧/١١٠) :

٣٦٢ تضاحكت لما رأت   شيباً تلالا غسره
٣٦٣ قلت لها لا تعجبى   أنبيك عندى خبره
٣٦٤ هذا غمام للردى   ودمع عينى مطره

ويذكر القارئ أننا سبق أن روينا أبياتاً **لأبى تمام** منها البيت التالى الذى أوردناه تحت رقم ٢٧٧ :

غدا الشيب مختطًّا بفودى خطةً   طريقُ الرّدى منها إلى النفس مَهْيَعُ

وها هو ذا **أبو العتاهية** يصف الخطوات التى تبدأ بهجوم المشيب وتنتهى بالموت فيقول (١٥/٢/٢٢٠) :

٣٦٥ لِدوا للموت وابنُوا للخرابِ   فكلُّكُم يصيرُ إلى تبابِ
٣٦٦ ألا يا موتُ لم أر منكَ بُدًّا   أتيت وما تحيف وما تُحابى
٣٦٧ كأنك قد هجمت على مشيبى   كما هجم المشيبُ على شبابى

ويقول أبو العتاهية (٤٩/٢/٣٢٧) :

٣٦٨ نعى لك ظلّ الشباب المشيبُ   ونادتك باسم سواك الخطوبُ
٣٦٩ فكن مستعدًّا لداعى المنونِ   فكلُّ الذى هو آتٍ قريبُ
٣٧٠ وقبلك داوى المريض الطبيبُ   فعاشَ المريضُ ومات الطبيبُ !
٣٧١ يخاف على نفسه من يتوبُ   فكيف ترى حالَ من لا يتوبُ ؟

وفى علاقة المشيب بالموت ووجوب الإعداد للآخرة يقول **البديع الهمدانى** (١٠٩/٧) :

٣٧٢ يا من يعلِّلُ نفسه بالباطل نزل المشيبُ فرحباً بالنازلِ
٣٧٣ إن كان ساءك طالعاتُ بياضه فلقد كساك بذاك ثوب الفاضل
٣٧٤ لا تبكينَّ على الشباب وفقده لكن على الفعل القبيح الحاصل
٣٧٥ يا غافلاً عن ساعة مقرونة بنوادب وصوارخٍ وثواكل
٣٧٦ قدم لنفسك قبل موتك صالحاً فالموت أسرع من نزول الهاطل !

ويقول **ابن الرومى** (١٧/١٩٢ – ١٩٣) :

٣٧٧ وقلتُ مسلِّماً للشيب أهلاً بهاد المخطئين إلى الصوابِ
٣٧٨ ألست مُبشِّرى فى كل يوم بِوَشْك ترحّلى إثر الشباب
٣٧٩ وأنت وإنْ فتكت بحبِّ نفسى وصاحبٍ للذّتى دون الصحاب
٣٨٠ فقد أعتبتنى وأمتّ حقدى بحثِّك خطفهُ عَجِلاً وكابى

ويرى **عدىّ بن زيد العبادى** أن الشيب نذير الشر فيقول (٣٧٨/٨) :

٣٨١ وابيضاضُ السّوادِ من نذر الشرّ م وهل مثله لحىٍّ نذيرُ ؟

ومثل ذاك النذير يدفع الشاعر إلى البكاء ، فيقول **محمود الوراق** (١/٢/٣٤٨) :

٣٨٢ بكيـــتُ لقرب الأجل وبُـعْـد فـواتِ الأمـلْ
٣٨٣ ووافِـد شيـب طـرا بـعـقب شباب رَحَـلْ
٣٨٤ شبـابٌ كـأن لم يكـن وشيـبٌ كـأن لم يـزل
٣٨٥ طـواك بشـيـرُ البـقـا وجـاء بشير الأجـل
٣٨٦ طـوى صاحبٌ صاحِباً كـذاك انتـقـالُ الـدُّولْ

ويجد **ابن عبد ربه الأندلسى** فى الشيب شاهداً على المنية فيقول (١/٢/٣٥١) :

٣٨٧ أطلالُ لهوك قد أقْوتْ مغانيها لم يبق من عهدها إلا أثافيها
٣٨٨ هذى المفارقُ قد قامت شواهدها على فنائِكَ والدنيا تُزَكِّيها
٣٨٩ الشيب سِفْتجةٌ فيها مُعَنْوَنَةٌ لم يبق للموت إلا أن يُسَجِّيها

ولابن عبد ربه أبيات أخرى فى هذا المعنى نفسه ، فهو يقول (١/٢/٣٥١) :

٣٩٠ نجومٌ في المفارق ما تغورُ ولا يجري بها فَلَكٌ يدورُ
٣٩١ كأن سواد لمّته ظلامٌ أغار من المشيب عليه نورُ
٣٩٢ ألا إن القتير وعيدُ صدقٍ لنا لو كان يرجونا القتير
٣٩٣ نذيرُ الموت أرسله إلينا فكذّبنا بما جاء النذيرُ
٣٩٤ وقلنا للنفوس لعلَّ عُمْرًا يطول بنا وأطولُهُ قصير
٣٩٥ متى كذبت مواعِدَها وخانتْ فـأولها وآخـرهـا غُـرور

ويقول أيضاً (٤/٩/٨٦١) :

٣٩٦ وثلاث شَيْباتٍ نَزَلْنَ بمفرقي فعلمتُ أن نزولَهُنَّ رحيلي
٣٩٧ طلعت ثلاثٌ في نزول ثلاثةٍ واشٍ ووجهُ مراقبٍ ومقيلِ
٣٩٨ فعذلنني عن صبوتي متذللاً ولقد سمعتُ بذلة المعذولِ

وقد سبق أن روينا لابن عبد ربه في هذا المعنى البيت التالي في الفصل الأول تحت رقم ١٤٢ :

أما الشباب فوُدِّعت أيامُهُ ووداعُهُنَّ مُوَكَّلٌ بِوَدَاعي

ونجد غسانَ خال الغدار يعدد علامات أقتراب المنية ، فيجعل بدايتها المشيب ويقول (٤٨٣/٨) :

٣٩٩ اِبيَضَّ مني الرأسُ بعد سوادِ ودعا المشيب حليلتي ببعاد
٤٠٠ واستحصد القرنُ الذي أنا منهمُ وكفى بذاك علامة لحصادي !

ويعمد الشعراء في بعض الأحيان إلى الفكاهة يخففون بها وطأة الشعور بأن الموت يجيء في أعقاب المشيب ، فيقول القاضي سند بن عنان يصف لنا كيف اجتز أول شعرة بيضاء أشرقت بمفرقه ، خوفا من الحتف ، فهزأت به هذه الشعرة (٣٢/ ٦٥) :

٤٠١ وزائـرة حَـلَّتْ بمفـرقـي فبادرتها بالنتف خوفاً من الحتف
٤٠٢ فقالت على ضعفي استطلت ووحدتي رويدك للجيش الذي جاء من خلفي

٢ — ج : عزوف الغواني وتعييرهن

إن أشد ما يحزن الشاعر مما يفعله المشيب هو عزوف الغواني وصدودهن من بعد إقبال ،

وما يلقاه منهن من هزء وسخرية ، مما يجعل الشاعر يقف دائماً موقف الدفاع عن ذلك الضيف الثقيل الذى حلّ برأسه ففرق بينه وبين أحبته . ويحفل الشعر العربى بنماذج تتناول هذا كله مع تنوعات متعددة .

يقول **السراج الوراق** (٣٨١/٣/١٢) :

٤٠٣ وكنتُ حبيباً إلى الغانيات   فألبسنى الشيبُ بُغْضَ الحبيب
٤٠٤ وكنتُ سراجاً بليل الشباب   فأطفأ نورى نهار المشيبِ

ويقول **عمر بن أبى ربيعة** (١٦٤/٢/١/٥) :

٤٠٥ صَرَمتْ حَبْلَكَ « البغوم » وصَدَّتْ   عنكَ فى غير ريبة أسماءُ
٤٠٦ والغوانى إذا رأينك كهلاً   كان فيهن عن هواك التواء !

و**لمحمود الوراق** فى هذا المعنى أبيات جامعة ، فهو يقول (٣٤٩/٢/١) :

٤٠٧ لا تطلبَن أثراً بعَيْن   فالشيبُ إحدى الميتَتَيْنْ
٤٠٨ أبدى مقابح كلِّ شَيْن   ومحا محاسن كلِّ زَيْنْ
٤٠٩ فإذا رأيت الغانيا   تِ رأين منك غُرابَ بَيْن
٤١٠ ولربّما نافَسْنَ فيـ   ـكَ وكُنَّ طوعاً لليدين
٤١١ أيام عمَّمك الشبا   بُ وأنت سهل العارضَيْنْ
٤١٢ حتى إذا نزل المشيـ   ـبُ وصرتَ بين عمامتَين
٤١٣ سوداء حالكة وبَيْـ   ـضاء المناشِر كاللُّجيْن
٤١٤ مزج الصدودُ وصالهنّ   م فكُنَّ أمْرًا بين بينْ
٤١٥ وصبرن ما صبر السَّوَا   دُ على مصانعةٍ ودينْ
٤١٦ حتى إذا شمل المشيـ   ـبُ فجاز قطر الحاجبين
٤١٧ فتسقين شرًّا تُقْيَةً   وأخذن منكَ الأطيبَيْنْ
٤١٨ فاقِن الحيا أو سُلَّ نَفْـ   ـسَكَ أو فناة الفرقدَيْنْ
٤١٩ ولئن أصابتكَ الخطو   بُ بكلِّ مكروهٍ وشَيْنْ
٤٢٠ فلقد أمنتَ بأن يُصيـ   ـبَكَ ناظِرٌ أبداً بعَيْنْ

ويمضى الشعراء فى الحديث عما فعله المشيب من عزوف الغوانى وإعراضهن ، فيقول **مسلم بن**

الوليد (١/٦/٢٢٩) :

٤٢١ الا أَنِفَ الكواعب عن وصالى　　غداة بدا لها شَيْبُ القذالِ

ويقول علقمة بن عبده (١/٧/١١٣) :

٤٢٢ فإن تسألونى بالنساء فإننى　　عليمٌ بأدواء النساء طبيبُ

٤٢٣ إذا شابَ رأسُ المرء أو قلَّ مالُهُ　　فليس له فى وُدِّهِنَّ نصيبُ

٤٢٤ يُردن ثراءَ المالِ حيث علمنه　　وشرخُ الشبابِ عندهن عجيب !

ومما يتفق مع قول علقمة هذا – ما روى عن بنات حرثان ذى الإصبع حين سمعهن أبوهن يتحدثن عن أمانيهن فى زوج المستقبل ، إذ قالت كبرى البنات الأربعة عمن تتمنى أن يكون زوجاً لها (٦/٢/٣٨٢) :

٤٢٥ ألا ليت زوجى من أناسٍ ذوى غِنًى　　حديثُ الشباب طيب الريح والعِطْرِ

ويقول محمد بن أمية (١/٢/٣٥٠) :

٤٢٦ – رأيْن الغوانى الشيب لاح بعارضى　　فأعرضْن عنى بالخدود النواضر

٤٢٧ وكنَّ إذا أبصرننى أو سمعن بى　　دَبَبْنَ فرقَّعن الكُوى بالمحاجر

ويقول المتنبى من قصيدة يمدح بها المغيث بن على بن بشر العِجلى (١٥/١/١٦٠) :

٤٢٨ ومَنْ خَبَر الغوانى فالغوانى　　ضياءٌ فى بواطنه ظلامُ

٤٢٩ إذا كان الشباب السكر والشيبُ　　م همًّا فالحياة هى الحِمامُ

وفى صدودهن يقول حبيب الطائى (١/٢/٣٤٩)

٤٣٠ نظرتْ إلىّ بعين مَنْ لم يَعْدِلِ　　لما تمكن حبُّها من مَقْتَلى

٤٣١ لما رأت وضح المشيب بلمّتى　　صدّت صدودَ مجانب متحمِّل

٤٣٢ فجعلتُ أطلبُ وصلها بتلطفٍ　　والشيبُ يغمزها بألاَّ تفعلى

وقال بعضهم فى جارية اسمها « الثريا » (١١/٢/٦٥٢) :

٤٣٣ ولما أن تنفَّسَ صُبحُ شيبى　　طوت عنى رداءَ الوَصْل طَيَّا

٤٣٤ تولت مُنيتى عنى فراراً　　ترى وصلى لدى الفتيات غيَّا

٤٣٥ فقلتُ هجرتِ سيدتى فقالت :　　وهل تبقى مع الصُّبح الثريا ؟

وقال أعرابى من بنى أسد (١/٧/١٥٥) :

٤٣٦ تمنيتُ لو عاد شرخُ الشباب ومَنْ ذا على الدهر يُعطَى المنى ؟
٤٣٧ وكنتُ مكيناً لدى الغانيات فلا شيء عندى لها ممكنا
٤٣٨ فـأما الحسان فـيأبيننى وأما القباحُ فآبى أنا !

وقال الشاعر (٨/٤٢٩) :

٤٣٩ رأيتُ الغانيات نفرن منى نفورَ الوحْشِ من رام مفيقِ
٤٤٠ رأين تغيّرى وأردن لدْناً كغصن البان ذى الفنن الوريق

ويقول جرير (٣٠/٧٦) :

٤٤١ بكر العواذل بالملامة بعدما قطع الخليطُ بساجرٍ ليبينا
٤٤٢ أمسيْن إذ بانَ الشبابُ صوادِفاً ليت الليالى قبل ذاك فنينا

ويقول ابن مقبل فى احتقار الغوانى للأشيب (٢١/١٠٣/١٥٨) :

٤٤٣ ما للغوانى إذا ما جئن تحدجنى بالطرف تحسب شيبى زادنى ضعفا

ويقول الشاعر وهو يزاوج بين المشيب وصدود الغوانى ، وبين الشباب ووصالهن (٢٤/١٩١) :

٤٤٤ فصبحُ الوصال دليل الشباب وصبح المشيب دليل الصدود !

ويقول ابن الرومى من قصيدة ينصح فيها عبيد الله بن سليمان بن وهب (٥٨/١٠٣) :

٤٤٥ فَرَّ منكَ الغزالُ يالابس الشيـ ـب فرارَ الغزالِ من صيّاده !
٤٤٦ وإذا اصطادكَ المشيبُ فطارد ت غزالاً فلست بالمصطَاده !
٤٤٧ لست عند الطرادِ من قانصيه أنت عند الطراد من طراده !

وفى هذا المعنى يقول شرف الدين بن عبد العزيز الأنصارى (٢٤/١٢١) :

٤٤٨ تولّى شبابى فولّى الغرام ولازم شيبى لزوم الغريم
٤٤٩ ولو لم تصدّنى بازيُّه لما صارمتنى مهاة الصريم

ويقول مهيار الديلمى عن صدود الغوانى بسبب المشيب (٢٢/٢٥٠) :

٤٥٠ ما أنكرت إلا البياض فَصَدّتِ وهى التى جنت المشيب هى التى
٤٥١ غراء يشغف قلبها فى نحرها وجبينها ما ساءنى فى لمّتى

ويقول **محمود سامى البارودى** (٢٢/٢٥٨) :

٤٥٢ هجرت ظلوم وهجرها صلة الأسى فمتى تجود على المتيم باللقا ؟
٤٥٣ جزعت لراعية المشيب ومادرت أن المشيب لهيب نيران الجوى
٤٥٤ ولوت بوعدك بعد طول ضمانه ومن الوعودخلابة ما تقتضى

ويقول **الأخطل** من قصيدة مدح بها عبد الملك بن مروان (٤٤/٦٥) :

٤٥٥ ياقاتل اللهُ وَصْلَ الغانيات إذا أَيْقَنَّ أنكَ ممن قد زها الكِبَرُ
٤٥٦ أعرضْنَ لما حنى قوسى مُوتِّرها وابيضَّ بعد سواد اللمّة الشَّعَرُ
٤٥٧ ما يرعوين إلى داعٍ لحاجته ولا لَهُنَّ إلى ذى شيبةٍ وَطَرُ

ويقول **عبد الله بن قيس الرقيات** فى مطلع قصيدة يرثى بها أقاربه (٤٤/٦٥) :

٤٥٨ ذهب الصِّبا وتركتَ غَيَّتَيهْ ورأى الغوانى شيب لمّتَيَهْ
٤٥٩ وهجرننى وهجرتهُن وقد غنيت كرائمها يَطُفْنَ بِيَهْ
٤٦٠ إذ لمتى سوداء ليس بها وَضَحٌ ولَم أُفجَع بإخوتيهْ

ويقول من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان (١٥/١/٦٨) :

٤٦١ لا بارك الله فى الغوانى فما يُصْبِحْنَ إلاّ لهن مُطَّلَبُ
٤٦٢ أبصرن شيئاً علا الذؤابة فى الرأس م حديثاً كأنه العطب
٤٦٣ فهُنَّ ينكرن ما رأيْن ، ولا يُعْرَف فى لِداتى اللعب
٤٦٤ ما ضَرَّ لو غدا بحاجتنا غادٍ كريمٌ أوزائرٌ جُنُب

وينسب **لبشار بن برد** هذه الأبيات (٥٢/٦/٢٣٥) :

٤٦٥ يا مرحبا ألفاً وألفَا بالكاسرات إلىّ طَرْفَا
٤٦٦ رُجُح الروادف كالظبا ء تعرّضت حوًّا ووُطفا
٤٦٧ أنكرن مركبىَ الحما رَ وكُنَّ لا يُنكرن طِرْفا
٤٦٨ وسألننى أين الشبا بُ فقلت بان وكان حِلْفا
٤٦٩ أفنى شبابى فانقضى حِلفُ النساء تبِعْنَ حِلفا
٤٧٠ أعطيتهُن مودّتى فجزيننى كذباً وخُلفا

وللشريف المرتضى عدة أبيات تناول فيها عزوف الغوانى وإنكارهن المشيب ، منها قوله (١٢/٣/٣٧٦) :

٤٧١ وغرائر أنكرن شيب ذؤابتى — والبيض منى عندهن السُّودُ
٤٧٢ يهوى الشباب وإن تقادم عهدُهُ — ويملّ هذا الشيب وهو جديدُ
٤٧٣ لا يبعدنْ عهد الشباب ومن جوىً — أدعو له بالقرب وهو بعيد
٤٧٤ أيام أُرمى باللحاظ وأرتمى — وأصاد فى شرك الهوى وأصيدُ

وقوله فى هذا المعنى (١٢/٣/٣٧٦) :

٤٧٥ والغانيات لذى الشباب حبائبٌ — وإذا المشيب دنا فَهُنَّ أعادِى !
٤٧٦ شعرٌ تبدّل لونه فتبدّلت — فيه القلوب عداوة بو دادِ !

كذلك نجد أن ابن عبد ربه قد أكثر من قول الشعر فى المشيب وفيما فعله ، فيقول عن عزوف الغوانى (١/٦/٢٩٥) :

٤٧٧ حالَ الزمانُ له فبُدِّلَ حالاً — وكسا المشيبَ مفارقاً وَقَذالاً
٤٧٨ غنيتْ غوانى الحىّ عنكَ وربما — طَلَعتْ إليك أَهِلَّةً وجمالا
٤٧٩ أضحَى عليكَ حَلالُهُنَّ مُحرَّماً — ولقد يكون حرامُهُنَّ حلالاً
٤٨٠ إن الكواعب إن رأَيْنك طاويا — وَصْلَ الشبابِ طوَيْنَ عينك وِصالا
٤٨١ « وإذا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فإنه — نَسَبٌ يزيدُكَ عِندهُنَّ خَبالاً » !

ويقول (١/٦/٢٩٠) :[٨]

٤٨٢ يا طالبًا فى الهوى ما لا يُنالْ — وسائلاً لم يَعفِ ذُلَّ السُّؤالْ
٤٨٣ ولَّتْ ليالى الصِّبا محمودةً — لو أنّها رَجَعَتْ تلكَ اللَّيالْ[٩] !
٤٨٤ وأعقبتْها التى واصَلْتَها — بالهجر لما رأتْ شيبَ القذالْ
٤٨٥ لا تلتمس وَصْلَةً من مُخْلِفٍ — ولا تكن طالباً ما لا يُنال
٤٨٦ يا صاح قد أخلفتْ أسماءُ ما — كانت تمنيك من حُسْنِ الوصَالْ

---

(٨) وردت هذه الأبيات فى يتيمة الدهر ٩ /٨٤٢ مع اختلاف طفيف .

(٩) رقم هذا البيت مع أنه سبق وروده فى ١ — د (البكاء على الشباب) تحت رقم ١٢١ .

ويقول الشريف الرضى (٣٧٣/٣/١٢) :

٤٨٧ ضاع الشباب فقل لى أين أطلبه ؟ وازورّ عن نظرى البيض الرعاديد
٤٨٨ وجرد الشيب فى فودى أبيضه ياليته فى سواد الشعر مغمود
٤٨٩ بيض ومسود برأس لا يسلطهـا على الذوائب إلا البيض والسود

ويتحدث الشعراء عن عبوس الغوانى إذ يرين المشيب فيقول أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدى (١٠٠٨/١١/٤) :

٤٩٠ وَقَفَتْنِى مابين همٌ وبوس وَثَنَتْ بعد ضِحْكَةٍ بعُبوس
٤٩١ ورأتنى مشطت عاجاً بعاج وهى الآبنوس بالآبنوس

والشاعر وهو يتحدث عن عزوف الغوانى ، يشكو تغير معاملتهن : فأحاديثه لم تعد تروق لهن أو تلقى لديهن آذاناً مصغية ، وأصبحن يعجبن منه بدلاً من أن كُنَّ يعجبن به . وهذا ما يعبر عنه ابن الرومى حين يقول وهو يتحسر أيضاً على مضى الشباب (٤٩/٢/١٥) :

٤٩٢ أأيام لهوى هل مواضيك عُوَّدُ ؟ وهل لشباب ضَلَّ بالأمس مَنْشَدُ ؟
٤٩٣ أقول وقد شابت شواتى ، وقوّستْ قناتى ، وأضْحت كِدْنَتِى تتمدّدُ
٤٩٤ ولذّتْ أحاديثى الرجال ، وأعرضتْ سُليمى وريّا عن حديثى ومَهْدَدُ
٤٩٥ وبُدِّلَ إعجابُ الغوانى تعجُّباً فَهُنَّ روانٍ يعْتبرن وصُدَّدُ

وفى بيت صنعه أبوعمرو بن العلاء وأدخله فى شعر الأعشى يقول (٣٨/٢/٦، ١٥٧/٦/١)[١٠]

٤٩٦ وأنكرتنى وما كان الذى نَكِرَتْ مِنَ الحوادث إلا الشَّيبَ والصَلَعَا

ويقول الشريف المرتضى (٣٧٤/٣/١٢) :

٤٩٧ والشيب داءٌ لربات الحجال إذا رأينه وهو داء ماله آسى
٤٩٨ يا قربهن وشيبى فاحم رجل وبُعْدَهُنَّ وشيبى ناصع عاسى
٤٩٩ ماذا يريبك من بيضاء طالعة جاءت بحلمى وزانت بين جلاسى

والشيب عيب فى نظر الغوانى ، وهن لا يفتأن يعيّرن الرجال به ، فيقول الشريف المرتضى (٣٧٥/٣/١٢) :

---

(١٠) جاء فى العقد الفريد (١٥٧/٦) أن الذى أدخل البيت فى شعر الأعشى هو حماد الراوية .

٥٠٠ يا بياض المشيب لونك لو أنـ ـصفتَ رائيكَ حالِكٌ غربيبُ
٥٠١ صَدٌ مِنْ غير أن يملّ وما أنـ ـكر شيئاً سواك عنى الحبيب
٥٠٢ يا مضيئا فى العين تسودّ منه كلّ يوم جوانحٌ وقلوبُ
٥٠٣ ليس لى مذ حللتَ ياشيبُ فى رأ سيَ كرهاً عند الغوانى نصيبُ
٥٠٤ رُحْن يدعوننى معيباً وينبـذْ نَ عهودى وأنت تلك العيوبُ

وفى هذا المعنى يقول **مهيار الديلمى** من أبيات له (١٢/٣/٣٧٨) :

٥٠٥ إذا لم يـرع عندكم الودادُ فسيَّان القـرابـة والبعادُ
٥٠٦ امعترض صـدودك أمَّ سَعْـد ببعض الشَّر أم خلق وعادُ
٥٠٧ وعبت وليس غير الشيـب شيئاً إذا دله بعيب أو أكادُ
٥٠٨ وما منى البياض فتحرميِنى به ذنبا ولا منك السواد

وليس الشيب فى نظر الغوانى عيباً فحسب ، وإنما هُنّ يعتبرنه ذنباً ، ويظل الشاعر يحاول أن يدفع عنه هذا الذنب ، فيقول **أبو تمام الطائى** (١١/٢/٧١٦، ١٢/٣/٣٧٠) :

٥٠٩ يانسيب الثغام ذنبك أبقى حسناتى عند الحسان ذنوبا
٥١٠ ولئن عبن ما رأين لقد أنـ ـكرن مستنكراً وعبْنَ معيبا
٥١١ لو رأى الله أن فى الشيب فضلاً جاورته الأبرار فى الخلد شيبا

ويقول **الشريف الرضى** (١٢/٣/٣٧٣) :

٥١٢ من شافعى وذنوبى عندها الكبر؟ إن المشيب لذنب ليس يغتفر
٥١٣ رأت بياضك مسودًا مطالعه ما فيه للحب لا عين ولا أثر
٥١٤ وما عليك ونفسك فيك واحدة إذا تغير فى ألوانه الشعر

ويقول **الشريف الرضى أيضاً** (١٢/٣/٣٧٣) :

٥١٥ ما لقائى من عدوى كلقـائى من مشيبى
٥١٦ وبياضٌ هـو عند الـ ـبيض من شر ذنوبى

ويقول **السيد محسن الأمين الحسينى العاملى** (١٢/٣/٣٨٠ – ٣٨١) :

٥١٧ أفَبَعْدَ ما ابيضَّ القِذال وشابا ترجو لوصل الغانيات إيابا
٥١٨ هيهات فاتك ما طلبت وقطّعَتْ بيضُ الكواعب دونك الأسبابا

٥١٩ كانت وأوجهها إليك بواسم فاليوم يصرفن الوجوه غِضابا
٥٢٠ والشيب ذنب ماله من توبةٍ ولربما اعتذر المسيء وتابا
٥٢١ لهفى على عصر الشباب مضى ومَنْ لى بالحمامة أن تعود غرابا

ويروى للشريف المرتضى عدة أبيات فى هذا المعنى ، فهو يقول (١٢/٣/٣٧٨) :

٥٢٢ وتعجبتْ للشيب وهو جناية لدلال غانية وصدّ صدوفِ
٥٢٣ وأحاطت الحسناء بى تبعاته فكأنما تفويفه تفويفى
٥٢٤ هو منزل قد بدّلتْهُ بغيره وهوى الفتى فى المنزل المألوف

ويقول (١٢/٣/٣٧٧) :

٥٢٥ عجبت لشيب فى عِذارىَ طالِعاً عليك وما شيب امرئٍ بعجيب
٥٢٦ وما كنت أخشى أن تكون جناية الـ ـمشيب برأسى فى حساب ذنوبى
٥٢٧ ولا عيب لى إلا المشيب وحبذا إذا لم يكن شيئاً سواه عيوبى

ويقول (١٢/٣/٣٧٦) :

٥٢٨ لا مرحبا بالشيب أظلم باطنى لما تجلّلنى وأشرق ظاهرى
٥٢٩ شعر أبى لى فى الحسان إصاخةً يوم العتاب إلى قبول معاذرى
٥٣٠ لا ذنب لى قبل المشيب وإننى لمؤاخذ مِنْ بعده بجرائر

ويقول متوسلاً ومدافعاً (١٢/٣/٣٧٨) :

٥٣١ ليس المشيب بذنب فلا تعدّيه ذنبا
٥٣٢ إن كنتُ بُدّلتُ لوناً فما تبدّلتُ حُبّا
٥٣٣ وكلما شاب رأسى نما غرامى وشبّا

ويقول وهو يتحسر أيضاً على الشباب (١٢/٣/٣٧٥) :

٥٣٤ وبيض لواهُنَّ المشيب عن الهوى فأنزرن من وَصْلى وأوسَعْن مِنْ هجرى
٥٣٥ وألزمنى ذنب المشيب كأنما جنته يداى عامداً لايدُ الدهر
٥٣٦ لحاكُنَّ ربّى إنما الشيب فسحة لما فات فى شرخ الشبيبة من أمْرِ
٥٣٧ سقى الله أيام الشبيبة ريّها ورعيا لعصر بان عنى من عصرِ

٥٣٨ ليالى لا يعدو جمالى منيتى   ولم ترد الحسناء نهى ولا أمْرى
٥٣٩ وإذ أنا فى حُبِّ القلوب محكم   وأفئدة البيض الكواعب فى أسْرى

وليس عزوف الغوانى هو كل ما يؤلم الشاعر ، وإنما ما يؤلمه أيضاً هزؤهن وتعييرهن وشماتتهن من ذلك ما أنشده **الأصمعى** عن بعض الأعراب (٨/٤٤٦ – ٤٤٧) :

٥٤٠ ألا قالت الخنساء يومَ لقيتُها   كبرت ولم تجزع من الشيب مجزعا[١١]
٥٤١ رأت ذا عصًا يمشى عليها وشيبة   تقنَّعَ منها رأسه ما تقنّعا
٥٤٢ فقلتُ لها : لا تهزئى بى فقلما   يسود الفتى حتى يشيب ويصلعا

وقول **الشريف المرتضى** (١٢/٣/٣٧٧) :

٥٤٣ تقول لى ودموع العين واكفة   خريدة كرهت فقد الشبيبة لى
٥٤٤ بُرد الشباب ببرد الشيب تجعله   مستبدلاً بئسما عوّضت من بَدَلِ
٥٤٥ شمِّر ثيابك من لهوٍ ومن أشرٍ   وعُد وراءك عن وجدٍ وعن غزل

وقول **عبد الله بن قيس** (٨/٣٥٠) :

٥٤٦ بكــرت عَلــىَّ عواذلى   يلـحـيـننى وألــومُـهُـنَّـهْ
٥٤٧ ويقلن شيــب قد عــلا   كَ وقدْ كبرت فقلت إنَّهْ[١٢]

وفى هذا المعنى يقول **ابن عبد ربه** (٤/٨/٧١٣) :

٥٤٨ بكرتْ علىَّ عواذلى تلحيْنَنى   وعلى الذى لم يعدنى أعْذَيْنَنى
٥٤٩ أيُّها عليكِ ، فقد كبرتُ عن الصِّبا   ونهى المشيبُ عن الذى تنهيننى
٥٥٠ أنىَّ وكيف رأين تغيُّرى   عن عَهْدِهِنَّ إذا العيون رأيننى
٥٥١ وعلى مفارقة الشباب شَمِتْنَ بى   وعلى معاداة الصِّبا عادينَنى

---

(١١) وردت الأبيات فى خزانة الأدب ٢/٨٩ – ٩٠ على النحو التالى :

ألا قالت الخنساء يوم لقيتها   أراك حديثا ناعم البال أفرَعا
فقلت لها : لا تنكرينى فقلما   يسود الفتى حتى يشيب ويصلعا

(١٢) جاء شرح ذلك فى مختار الصحاح (٣/ ٢٣) على النحو التالى : أى أنه كما تقلن . قال أبو عبيد : وهذا اختصار من كلام العرب يكتفى منه بالضمير لأنه من علم معناه .

وعن هزء الغوانى بالأشيب يقول **عبد الرحيم الزلالى** (٤/٥/٤٦١) :

٥٥٢ ضحكت أسماءُ من ذى لمّةٍ ضاحكَ الأشيبُ فيه الأشيبا
٥٥٣ إنما يعرف أيام الصِّبا من صبا فى غير أيام الصِّبا

ويقول **السّرى الرفّاء** مشبها بياض الشعر بالعاج وسواده بالأبنوس (٤/١١/١٠٠٨) :

٥٥٤ رأت شيباً يضاحكها ، فصَدّتْ وكان جزاؤه منها العُبوسا
٥٥٥ وقالت إذ رأتْ للمُشط فيهِ سواداً لا يشاكِلهُ نفيسا
٥٥٦ تلق العاج منك بمشط عاجٍ ودَعْ للآبنوس الآبنوسا

ومثل ذلك قول **الصاحب** (٤/١١/١٠٠٨) :

٥٥٧ هاتِ مشطاً إلى وليّك عاجاً فهو أدنى إلى مشيب الرءوس
٥٥٨ وإذا ما مشطتُ عاجاً بعاجٍ فامْشطِ الآبنوس بالآبنوس

ويقول **بعضهم** وهو يكيل للمستهزئة الصاع صاعين (١٢/٣/٣٨١) :

٥٥٩ قالت وقد راعها مشيبى كنتَ ابن عمٍّ فصرتَ عمَّا
٥٦٠ فقلت هذا وأنتِ أيضاً قد كنتِ بنتاً فصرتِ أمَّا

ولا يفتأ الشعراء يدخلون فى جدل وحوار مع الغوانى حين يجدون إعراضهن بعد حلول المشيب ، وهم فى هذا يقفون موقف الدفاع عن المشيب فنسمع **أبا العلاء المعرى** يقول (١١/٢/٦٥٢ ، الأبيات ٢ – ٤) :

٥٦١ هى قالت لما رأت شيب رأسى وأرادت تنكراً وازورارا
٥٦٢ أنا بدرٌ وقد بدا الصبح فى رأ سك والصبح يطرد الأقمارا
٥٦٣ لست بدراً وإنما أنتِ شمسٌ لاتُرى فى الدجى وتبدو نهاراً !

كذلك يقول **الشاعر** (١/٢/٣٤٩) :

٥٦٤ صَدّتْ أمامة لما جئتُ زائرها عنى بمطروفة إنسانها غَرِقُ
٥٦٥ وراعها الشيبُ فى رأسى فقلت لها كذاكَ يصفرُّ بعد الخضرةِ الورقُ

ويقول **أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن أحمد** ولد ابن طباطبا (٤/٧/٦٥٣) :

٥٦٦ صَدَفَتْ عنّا نُوارُ ولقد كانت تزورُ

٥٦٧ ثم قالت : كيف أودَى ذلك الغصنُ النَّضيرُ ؟
٥٦٨ وشباب يتلالا فيه للناظر نورُ
٥٦٩ قلتُ : إن أنصفتِ هذا لابن خمسين كثيرُ

ويقول الشريف المرتضى من قصيدة له ، وفيها أيضاً يذم الشباب ويستهجن الخضاب (٣٧٤/٣/١٢) :

٥٧٠ يا هند إن أنكرت لونَ ذوائبى فكما عهدت خلائقى وطرائقى
٥٧١ ووراء ما شنأتِه عينك خلسة ما شئت من خلقٍ يسرّك رائق
٥٧٢ ومعيِّرى شيبَ العِذار وما درى أن الشباب مطية للفاسق
٥٧٣ ويقول لو غيَّرت منه لونه هيهات أُبدل مؤمناً . بمنافق !

ونسمع مهيار الديلمى يقول (٣٧٩/٣/١٢) :

٥٧٤ عذولك فىّ فعيَّرولك سريرةً ورأيت شيباً فاستحلت عيانا
٥٧٥ عذل يرى عدلاً وجور ذوائب سموه لى عزاً فجرّ هوانا
٥٧٦ ما غيرت بالشيب لوناً لمّتى حتى تغيّر صاحبى ألوانا
٥٧٧ بيضاء سوّدت الصحيفة عنده واستعجلته بوصلها الهجرانا
٥٧٨ إن يجتنب منها المشيم مصوحاً فبما اجتنى ريعانها ريحانا

ويقول المرار بن منقذ (١٤٨/٢٢) :

٥٧٩ عجبٌ خولة إذ تنكرنى أم رأت خولة شيخاً قد كَبِرْ
٥٨٠ إن ترى شيئاً فإنى ماجد ذو بلاء حسن غير غُمُرْ

ويقول أبو العلاء المعرى فى درعيته الخامسة عشرة (١٩٠٨/٥/١١) :

٥٨١ يا أخت نَضْلة هل يسوءك أننا بات المطىّ بنا إليك يسُوكُ
٥٨٢ مَسّى البياضَ لعل شرخاً عائدٌ أو عَلَّ نَشْرك بالمشيب يصوك

ويرد العلوى على من عيرته بالمشيب قائلاً (٣٥٠/٢/١) :

٥٨٣ عيرّتنى شيْب رأسى نَوارُ يابنة العمّ ليس فى الشيب عارُ
٥٨٤ إنما العار فى الفرار من الزَّحْـ ـف إذا قيل أين أين الفرار؟

كذلك يرد ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي قائلاً (٥٤/٥٥) :

٥٨٥ وقائلة أراكَ على التّصابي وغصنُ العُمْرِ دَبَّ به الذبولُ
٥٨٦ وهذا الشيب أنجمه أنارت وطالعها لصاحبها أفول
٥٨٧ فقلت لها ودمعُ العين مني : على تلك النجوم له مسيل
٥٨٨ أصيلُ العمر أتركه ضياعاً إذِ الأوقاتُ أطيبها الأصيل

ومن الشعراء من لا يبعث المشيب اليأس في نفسه ، فنسمع جريراً يقول من قصيدته التي يمدح بها عبد الملك بن مروان (١٥/٢/١٠٥ ، البيت الثاني) :

٥٨٩ تقولُ العاذلاتُ علاكَ شيبٌ ! أهذا الشيب يمنعني مراحي ؟

غير أن الشريف المرتضى حين سئل نقض بيت جرير هذا قال (١٢/٣/٣٧٦) :

٥٩٠ وما مرح الفتى تزورُّ عنه خدودُ البيض بالحدق الملاح
٥٩١ ويصبح بين إعراض مبين بلا سبب وهجران صراح
٥٩٢ وقالوا : لا جناح فقلت : كلاً مشيبي وحده فيكم جناح
٥٩٣ سقى الله الشباب الغضّ راحاً عتيقا أو زلالاً مثل راح
٥٩٤ ليالي ليس لي خلق معيب فلا جَدّي يُذَمُّ ولا مزاحي
٥٩٥ وإذْ أنا من بطالات التصابي ونشوات الغواني غير صاحي
٥٩٦ وإذْ أسماعهن إلى ميل يصغْن إلى اختياري واقتراحي

٢ – د : الدفاع عن المشيب .

ويواجه الشاعر حلول المشيب وعزوف الغواني وتعييرهن باتخاذ موقف يدافع فيه عن المشيب ، فنجده يبرز محاسنه ويعددها ، ويحاول أن يثبت حتمية المشيب بالنسبة للبشر. وحين يخشى أن تكون حجته داحضة عندهن نجده يحاول أن يدلل على أن هذا الشيب الذي يُعيَّر به إنما هو شيب مبكر قد جاء في غير أونه ، ويعدد الأسباب التي أدّت إليه .

٢ – د – ١ : تحسين المشيب .

نبدأ بقول الشريف الرضي وهو يحاول أن ينصف كلاً من الشباب والمشيب (١٦/٢/٢٨) :

٥٩٧ وما كُلّ أيام المشيب مريرة ولا كُلُّ أيام الشباب عِذابُ
٥٩٨ أؤمل مالا يبلغ العمر بعضه كأن الذي بعد المشيب شباب

وفى الأبيات التالية يشبه **أبو العلاء المعرى** الشباب بثلاثة أشياء والمشيب أيضاً بثلاثة ، فيقول مفاضلاً بين الشباب والمشيب (٢٠٣٣/٥/١١) :

٥٩٩ خبِّرينى ماذا كرهت منَ الشيـ ـب فلا علم لى بذنب المشيبِ
٦٠٠ أضياءُ النهار أم وَضَح اللؤ لؤِ أم كونُهُ كثغرِ الحبيبِ
٦٠١ واذكرى لى فَضْلَ الشباب ومايجْـ ـمَعُ مِنْ منظرٍ يروقُ وطيبِ
٦٠٢ غَدْرُهُ بالخليلِ أم حُبُّهُ لِلْـ ـغيِّ أم أنه كدهرِ الأديبِ

وفى دفاعه عن المشيب يرى الشاعر أنه لا يجرد المرء من مواهبه وفضائله ، وفى ذلك يقول **أبو الفتح البستى** (٩٦/٢٤) :

٦٠٣ أبـا العبـاس لا تحسب بأنى لشيبـى من حلى الأشعار عارى

ويقول **السيد محمد الأمين الحسينى العاملى** (٣٨٠/٣/١٢) :

٦٠٤ باتت تعيِّرنى بالشيب حين بدا فقلت هيهات ما بالشيب من عار
٦٠٥ ما شاب حلمى ولا عزمى ولا نقصت يا مىّ بالشيب لذاتى وأوطارى

والمشيب لا يحول بين المرء وبين التمتع بالحياة ، **فيقول الشاعر** (٣٥٦/٢/١) :

٦٠٦ يقولون هل بَعْدَ الثلاثين مَلْعَبُ ؟ فقلتُ وهل قبل الثلاثين ملعب ؟
٦٠٧ لقد جَلَّ قدْرُ الشيب إن كان كلما بدت شيبةٌ يَعْرَى من اللهو مَرْكَبُ[١٣]

ويرى **محمود الوراق** أن الشيب نعمة ، لأنه يأتى مع طول العمر ، ومن ثم فإن من يعيب الشيب يستوجب الدعاء عليه بألا يبلغه ، فيقول (٣٥٧/٢/١) :

٦٠٨ وعـائب عـابنـى بشيـبٍ لم يَعْـدُ لمّا ألَمَّ وَقْتَـهْ[١٤]
٦٠٩ فقلــت للعائبـى بشيبـى يا عائــب الشيب لا بلغْتَهْ

ويرى **طريح بن إسماعيل الثقفى** أن الشيب يضفى على المرء جمالاً فيقول (١٠٨/٧) :

٦١٠ والشيب إن يحلل فإن وراءه عمراً يكون خلاله متنفسُ
٦١١ لم ينتقص منى المشيب قلامة ولنحن حين بدا ألذّ وأكيَسُ

(١٣) جاء فى العقد الفريد ٦ /١٨٤ لفظ « عُرِّى » بدلا من « يعرى » .

(١٤) ورد عجز البيت الأول مختلفا فى العقد الفريد ٦ /١٨٤ على النحو التالى « لم يأن لما أبان وقته » كما ورد صدر البيت الثانى هكذا : « فقلت إذ عابنى بشيبى » .

ونجد مالك بن خريم[١٥] يعدد مساوى أربعةً جعله المشيب ينأى عنها ويحجم عن اقترافها فيقول (٣٨/٢/١٤) :

٦١٢ فإن يك شاب الرأس منى فإننى أبيت على نفسى مناقب أربعا
٦١٣ فواحدة ألا أبيت بغسرة إذا ما سوام الحىِّ حولى تضوعا
٦١٤ وثانية ألا تُفَزَّعَ جارتى إذا كان جار القوم فيهم مُفَزَّعا
٦١٥ وثالثة ألا أصَمِّتَ كلبنا إذا نزل الأضياف حِرصًا لنودعا
٦١٦ ورابعة ألاّ أحجل قِدرنا على لحمها حين الشتاء لنشبعا

والشيب سمة العفيف ، فيقول دعبل الخزاعى (١٠٨/٧) :

٦١٧ أهلاً وسهلاً بالمشيب فإنه سمة العفيف وهيئة المتحرج
٦١٨ وكأن شيبى نظمُ درٍّ زاهرٍ فى تاج ذى ملك أغر متوج

ونراه يرحب بالشيب ضيفاً فيقول (١٠٨/٧) :

٦١٩ أحب الشيب لما قيل ضيفٌ كحبِّى للضيوف النازلينا[١٦]

ومع الشيب يأتى الحزم وصواب الرأى ، كقول كثير عزة يمدح عبد الملك بن مروان (٥٩٠/٨) :

٦٢٠ رأيت أبا الوليد غداة جمع به شيب وقد فقد الشبابا
٦٢١ ولكنْ تحت ذاك الشيب حزم إذا ما ظن أمرض أو أصابا[١٧]

وقول أبى الفتح البستى (١١١/٣/٤٥) :

٦٢٢ ما استقامت قناة رأيى إلا بعد أن عوّج المشيبُ قناتى

والشيب يلبس المرء ثوب النهى والتعقل ، فيقول ابن عبد ربه (٣٥٠/٢/١ ، ٨٣٢/٩/٤ – ٨٣٣) :

---

(١٥) وقيل « حزيم » بالحاء المهملة والزاى .

(١٦) قارن بين هذه النظرة إلى المشيب وبين ذم المشيب باعتباره ضيفاً غير مرغوب فيه ، وذلك فى أبيات كل من المتنبى والسراج الوراق التى وردت فى ٢ – ب – ١.

(١٧) جاء لفظ « قال » بدلا من « ظن » فى شروح سقط الزند ١ /٢٤٤ .

٦٢٣ بدا وَضَحُ المشيب على عِذارى   وهل ليلٌ يكون بلا نهارِ؟
٦٢٤ شَرَيْتُ سوادَ ذا ببياض هذا   فَبَدَّلْتُ العمامة بالخمار
٦٢٥ وألبسنى النهى ثوباً جديداً   وجرّدنى من الثوب المُعار
٦٢٦ وما بعت الهوى بيعاً بِشَرطٍ   ولا استثنيتُ فيه بالخيار

كذلك فالمشيب يلبس المرء ثوب الفاضل ، كهذا البيت الذى رويناه تحت رقم ٣٧٣ ضمن أبيات أخرى **للبديع الهمذانى** :

... إن كان ساءك طالعاتُ بياضه   فلقد كساكَ بذاكَ ثوب الفاضِل

وفى هذا المعنى يقول **أبو السميط** (١٠٨/٧) :

٦٢٧ إن المشيب رداء العقل والأدب   كما الشباب رداء اللهو والطرب

ويقول **أبو تمام** (٣٧١/٣/١٢) :

٦٢٨ ست وعشرون تدعونى فأتبعها   إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب
٦٢٩ فلا يروعنّك إيماض القتير به   فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب(١٨)

والمشيب يكسب المرء حُنكَة وتجربة ، فالمرء كلما زادت أيامه ، وعلت سنه كثرت تجاربه وأصبح محنكا . ويصف **أبو العلاء المعرى** فرسانا بأنهم شيبٌ محنكون قد مارسوا الحروب ، وليسوا بشباب أغمار لا دُربة لهم بالحرب ، وذلك من قصيدة قالها وهو محتجب بمعرة النعمان ، يخاطب بها خازن دار العلم ببغداد (١٦٣٧/٤/١١ - ١٦٣٨ ، البيت ٣٤) :

٦٣٠ فوارسُ طَعانون مازال للقنا   مع الشيب يوماً فى عوارضهمْ وَخْطُ

وفى ذلك يقول **الراجز** (١٦٣٨/٤٠/١١) :

٦٣١ يمنعها شيخٌ بخدّيه الشيبُ   لايحذر الرِّيب إذا خيف الريبُ

وهذا المعنى أراده **أبو الطيب** بقوله (١٦٣٨/٤/١١) :

٦٣٢ سأطلب حقى بالقنا ومشايخٍ   كأنهم من طول ما التثموا مُرْدُ

وعن الحُنكة التى تأتى مع المشيب ما أنشده **الجاحظ** لامرأة (٢٠٣/١٠٣/٢١) :

---

(١٨) جاء لفظ « المشيب » بدلا من « القتير » فى اللطائف والظرائف / ١٠٨ .

٦٣٣ وهبته من سَلْفَع أفوكِ ومن هِبَلٌ قد عسا حنيكِ
٦٣٤ أشهب ذى رأسٍ كرأسِ الدّيكِ

والمشيب فى الإسلام خير المشيب ، كقول **سراج الدين الوراق المصرى** (١٥/٢/٤٤٢) :

٦٣٥ إلهى قد جاوزتُ سبعين حجةً فشكراً لنعماك التى لا تُكفَّرُ
٦٣٦ وعُمِّرتُ فى الإسلام فازددت بهجةً ونوراً لذا قالوا : السِّراج المعمر
٦٣٧ وعَمَّ نور الشيب رأسى فسرّنى وما ساءنى أن السراج مُنوَّرُ

وإن كان المشيب لايعيب الرجل فهو كذلك لا يعيب المرأة ، ولا يحول دون حب الرجل لها ، كقول **أعرابى** فى عجوز (١/٦/١٨٤) :

٦٣٨ أبَى القلبُ إلاّ أم عمرٍو وحبَّها عجوزاً ومن يحبب عجوزاً يفنَّدِ
٦٣٩ كبُرْدِ يمانٍ قد تقادم عهدُه ورُقْعته ماشيب فى العين واليد

والمشيب يكسب المرء وقاراً ، فيقول **الشاعر** (٤٩/٢/٣٢٥) :

٦٤٠ وكان الشباب الغضُّ لى فيه لذة فوقَّرنى عنه المشيب وأدّبا
٦٤١ فَسَقْيًا وَرَعْياً للشبابِ الذى مضى وأهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحبا

ويقول **أبو فراس الحمدانى** من قصيدة له (٤/١/٧٠) :

٦٤٢ وما استمتعت مِنْ داعى التَّصابى إلى أن جاءنى داعى الوقار

وقد ينسى الشاعر شيبه ووقاره حين يلاعب أولاده ، كقول **محمود غنيم** (٢٤/٢٣٦) :

٦٤٣ وأطيب ساع الحياة لديّا عشية أخلسو إلى ولديّا
٦٤٤ فأنسى عِذارى وأنسى وقارى وأحسبُ أنى عُدتُ صبيا

وقد يجد الشاعر أن وقار المشيب مفروض عليه فرضاً ، كقول **على بن جبلة** فى مطلع قصيدة يمدح بها أبا دلف العجلىّ (١٨/٦٥) :

٦٤٥ ذَادَ وِرْدَ الغىِّ عن صَدَرِهْ وارعوى واللهو من وَطَرِهْ
٦٤٦ وأبت إلا الوقار له ضحكات الشيب فى شعرهْ
٦٤٧ ندمى أن الشباب مضى لم أبلِّغهُ مَدَى أَشَرِه
٦٤٨ وانقضت أيامه سلماً لم أهجْ حرباً على غِيَرِه

٦٤٩ حسرت عنى بشاشتهُ وذَوَى اليانع من ثمره[١٩]
٦٥٠ وصغت أذنى لزاجرها ولما تشجى لمزدجره
٦٥١ إذ يدى تعصى بقوتها لا ترى ثأرًا لِمُثْئِرهْ
٦٥٢ والصِّبا سَرْحٌ أطيفُ بِهِ فأصيبُ الأُنس من نفرهْ

وهذا الجلال الذى يحيط بالمشيب يجده على بن جبلة مسئولاً عن عزوف الغوانى (٩٠/١٨) وهذا البيت هو الثامن من أبيات أوردناها تحت أرقام ٢٦٩–٢٧٥) :

٦٥٣ جلال ولكنه تحاماه حور المُقَلّ

وهذا الجلال يرفضه أيضاً أبو تمام فيقول (٣٧٠/٣/١٢) :

٦٥٤ شُعْلَةٌ فى المفارق استودعتنى فى صميم الفؤاد ثكلاً صميما
٦٥٥ دقة فى الحياة تدعى جلالاً مثلما سُمِّىَ اللديغُ سليما

كذلك يرفض يوسف بن حمويه الوقار الذى يأتى به المشيب فيقول (٧٠/٤٠) :

٦٥٦ ووقارى إذا توقر ذو الشيـ ـبة وَسْطَ النَّدى تركُ الوقارِ

وفى مجون يعترف أبو نواس بأن شيبه ليس وقاراً فيقول (٣٥٦/٢/١) :

٦٥٧ يقولون فى الشيب الوقار لأهْلِهِ وشيبى بحمد الله غيرُ وقار!

ولما كان الصلع هو البديل للشيب من حيث حلوله بعد ذهاب الشباب ، أو أنه يأتى مصاحباً للمشيب (أنظر رقمى ٣٥ ، ٣٤٩) – فإن الشاعر يدافع عنه كما يدافع عن المشيب (انظر ٧٨٤ – ٧٨٧) قائلاً إنه كالمشيب : يعد شرفاً ، ويضفى على المرء جلالاً ؛ ولكن كما يرفض بعض الشعراء الجلال الذى يأتى به المشيب (انظر الأبيات رقم ٦٥٣ – ٦٥٥) – فإنهم يرفضون أيضاً ذلك الشرف الذى يمنحهم إياه الصلع . ونسمع أسعد رستم الشاعر المهجرى يقول وقد أعجبته صلعة أحد أصدقائه ، فنظم فيها قصيدة بعنوان « الصلعة أو الطاسة المبصبصة » (٣٣١/٤٨– ٣٣٢) :

٦٥٨ لصديقنا فى رأسه صحراءُ جَفَّتْ فلا عشبٌ بها أو ماءُ
٦٥٩ وكأنها الميدان من بعد الوغى فنِىَ الجميع فما به أحياء

---

(١٩) ورد فى الأغانى ٢٥٤/٨ لفظ « المحمود » بدلا من « اليانع » .

٦٦٠ تزداد ما مَرّ الزمانُ مساحةً   وصديقنا من كبرها يستاء
٦٦١ ولقد سمعناه يقول ودمعهُ   يجرى فيعمى مقلتيه بكاء :
٦٦٢ كم من دوًا للشعر قد جرّبتُهُ   يوماً فراح سُدًى وظَلَّ الداء !
٦٦٣ يا حسرتى ! ذَهَبَ الشباب وكان لى   فيه مآثرُ جمةٌ غرّاء
٦٦٤ أما الحسان الفاتناتُ فليس لى   مع صلعتى فى وَصْلهنَّ رجاء
٦٦٥ قلنا له : مهلاً ، فلِمْ هذا البكا   واسمع ففى هذا الكلام عزاء :
٦٦٦ أو ليس للإنسان فى إحرازها   شرف ، ويملك مثلها العلماء ؟
٦٦٧ فأجاب : لا شرفٌ أريدُ ولا عُلاً   أفما لديكم غير ذاك دواء ؟

ويقول **محمد بن مناذر** يفاضل بين الشباب والمشيب فيمتدح المشيب لأنه وازع ، ويذم الشباب (١/٢/٣٥٧) :

٦٦٨ لاسلام على الشباب ولا حيّـ   ـا الإله الشباب من مَعْهودِ
٦٦٩ قد لبستُ الجديدَ من كل شيء   فوجدت الشباب شرَّ جديد
٦٧٠ صاحِبٌ ما يزال يدعو إلى الغيـ   ـم وما مَنْ دعا له برشيد
٦٧١ ولنعم المنيب والوازع الشيـ   ـب ونعم المفاد للمستفيد

ويقول **الشاعر** (٢/٢/١٩١) :

٦٧٢ ذا ارعواء فليس بعد اشتعال الرأ   س شيباً إلى الصِّبا من سبيلِ

ويقول **ابن المعتز** وهو من حسن ابتداءاته (١٣/٢٧١ ، ١٦/١/١٩٤) :

٦٧٣ أخذت من شبابى الأيامُ   وتولى الصِّبا عليه السلامُ
٦٧٤ وارعوى باطلى فبانَ حديث النفـ   ـس منى وعفت الأحلام

وفى هذا المعنى يقول **ابن عبد ربه** (١/٢/٣٥٢ – ٣٥٣) :

٦٧٥ وَلَّى الشبابُ وكنت تسكُن ظِلَّهُ   فانظر لنفسك أىَّ ظِلٍّ تسكُنُ
٦٧٦ ونهى المشيبُ عن الصِّبا لو أنَّهُ   يُدلى بحجّته إلى مَنْ يلْقنِ

ويقول **جعفر بن جرار** كاتب ابن طولون من قصيدة طويلة له (١/٦/١٩٥) :

٦٧٧ لو كنْت مِمَّنْ لكنتُ مِمَّا   لكننى قد كبِرتُ مِمَّا . .
٦٧٨ . . . عاتبنى الدهرُ فى عِذارى   بأحرفٍ فارعويتُ لمّا

٦٧٩ قُوِّسَ ما كان مستقيماً وابيض ماكان مُدْلهمّا
٦٨٠ وكيف تصبو اللُّمَى إلى من كان أخـا ثم صار عمّا
٦٨١ لى عنكِ يا أخت أهْلِ يمٌ شُغْلٌ بما قد دنا وحُمّا

ويقول عدى بن الرقاع (٩/٧١) :

٦٨٢ لولا الحياءُ وأنّ رأسى قد عَفا فيه المشيب لزرتُ أُمّ القاسِم
٦٨٣ وكأنهـا بين النسـاء أعارهـا عينيه أحورُ من جآذِرِ عاسِمِ

ويقول راشد بن عبيد الله (١٣٧/٦/١) :

٦٨٤ صحا القلبُ عن سَلْمى وأَقْصَرَ شأْوُهُ وَرَدَّتْ عليه ما بَغَتْهُ تماضرُ
٦٨٥ وحَكَّمَهُ شيبُ القذالِ عن الصّبا وللشَّيبُ عن بعضِ الغواية زاجرُ
٦٨٦ فأقصر جهلى اليوم وارتدّ باطِلى عن اللّهوِ لما ابيضَّ مِنّى الغدائرُ

ويقول الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد (٤/٩/٧٦٩) :

٦٨٧ قد تركنا الصِّبا لكلِّ غَوِىٍّ وانسلخنا من كُلِّ ذامٍّ وعابِ
٦٨٨ وانقطعنا لواعِظاتِ مشيب آذنتـنا حيـاتُـها بذهابِ
٦٨٩ وإذا ما الصِّبا تَحَمل عنا فقبيحٌ بنا ارتضاءُ التَّصابى

ويقول ابن المعتز (١٥/١/١٢٢) :

٦٩٠ أعاذلُ قد كبرتُ على العتاب وقد ضحك المشيب على الشبابِ
٦٩١ رددتُ إلى التقى نفسى فَقَرَّتْ كما رُدَّ الحُسام إلى القِراب

ويقول إبراهيم بن العباس الصولى (٤٢/٢٦٠).

٦٩٢ إنَّ الزمان وما ترين بمفرقى صرف الغواية فانصرفت كريما
٩٩٣ وضجرتُ إلاَّ من لقاء مُحَدِّثٍ حسن الحديث يزيدنى تعلما

ويقول ابن نباتة المصرى (١٦/٢/٢١٤) :

٦٩٤ فقدتُ الهوى لما فقدت شبيبتى وأوجعُ مفقودٍ هوى وشبابُ
٦٩٥ وكان يصيدُ الظبىَ فاحِمُ لمّتى وأغرب ما صاد الظباء غراب
٦٩٦ ولو كنتُ من أهْلِ المداجاة فى الهوى لكان بدمعى للمشيب خِضابُ

ويجد سحيم عبد بني الحسحاس في الإسلام ناهياً وزاجرًا ، وذلك بالإضافة إلى الشيب ، فيقول (٣/٢/٨٨) :

٦٩٧ عُمَيْرَة وَدِّعْ إن تجهَّزْتَ غاديًا كفا الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

ويرى ابن الرومي أن هذا الارعواء إنما يُكره الشاعر عليه كرهاً فيقول (١٧/١٩٠) :

٦٩٨ كفى بالشيب من ناهٍ مُطاع على كُرْهٍ ومن داعٍ مُجاب

٦٩٩ حططتُ إلى النُّهى رحلي وكلَّتْ مطيَّةُ باطلي بَعْد الهِبابِ

ومن الشعراء من يحض على وجوب الارعواء والتزام الوقار بعد المشيب ، وذلك من حيث المظهر والسلوك ، فيقول الشاعر (٢١/١٠٨/٢٨٩) :

٧٠٠ يالابس الوشي على شيْبه ما أقبح الدّاحَ على الشيخ !

ويقول آخر (٢٩/٢١٥) :

٧٠١ بالله قُل لي يا فُلا نُ ولي أقول ولي أسائِلْ

٧٠٢ أتريد في السبعين ما قد كنت في العشرين فاعِلْ ؟

ويقول ابن عبد ربه :

٧٠٣ يا قادراً ليس يعفو حين يقتدِرُ ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر ؟

ويقول الشاعر (٥٢/٢٧٧) :

٧٠٤ أنت في الأربعين مثلك في العشرين م حتى متى يكون الفلاح ؟

وفي مسرحية «كليوباترة» يدور الحديث بين « حابي » و « زينون » عن الحب وينتهي الأمر بسخرية « حابي » من الشيخ المتيم فيقول أحمد شوقي على لسانه (٢٢/١٨٢) :

٧٠٥ أَفِقْ زينون واصْحُ من الغواني أبَعْدَ الشيب تخدعك النِّساءُ ؟

ويقول أبو فراس في مطلع قصيدة له (١١/١/٤٢٥) :

٧٠٦ وقوفك بالديار عليك عارُ وقد رُدَّ الشباب المستعارُ

٧٠٧ أبعد الأربعين مجرمات تمادٍ في الصّبابة ثُمَّ اغترار ؟

ويقول الحسن بن هانئ من أبيات له (٨/٤٨٥) :

٧٠٨ شبت ياهذا وما تتـ ـرك أخلاق الغلام !

وقال عمر بن عبد العزيز (١٤/١/٣٨) :

٧٠٩ إنَّهَ الفؤاد عن الصِّبا وعن انقيادك للهوى

٧١٠ فلعمر ربك إنَّ في شيب المفارق والجلا

٧١١ لك واعظاً لو كنت تتعظ م اتعاظ ذوى النهى

٧١٢ حتى متى لا ترعوى وإلى متى ؟ وإلى متى ؟

٧١٣ بلىَ الشبابُ وأنت إنْ عُمِّرتَ رَهْنٌ للبلى

٧١٤ وكفى بذلك زاجراً للمرء عن غيٍّ ، كفى !

أما حين لا يتوجه الشاعر بالنصح إلى المخاطب مباشرة فإن حضَّه على الارعواء : إما أن يكون في صيغة حقائق ثابتة ، أو أن يكون عن تجربة شخصية ، مثال ذلك : قول عبد الله المعتز من أبيات له (٤١/١٠٦) :

٧١٥ وما أقبح التفريط في زمن الصِّبا ! فكيف به والشيب في الرأس شامل ؟

وقول أبي سعيد الرستمي (٣٣/١٢/٥٣) :

٧١٦ قبيح بذى الشيب إن يطربا فما للمشيب وما للصِّبا ؟

٧١٧ أمِنْ بعد خمسين ضاعت سُدى وأوْدى بها اللهو أيدى سبا

٧١٨ تشيم بسروق الدمَى دائماً وقد شامت العارضَ الأشيبا ؟

٧١٩ وأقبحْ بذى عارضٍ أشيبٍ إذا قابل العارض الأشنبا !

٧٢٠ وأهلك والليل بادرْ بِهِ فقد كادت الشمس أن تغربا !

وقول الشريف أبي إبراهيم (١١/١/٤٢٥) :

٧٢١ غير مُسْتحسنٍ وصالُ الغوانى بعد ستين حجة وثمانِ

وقول الشاعر (٤٩ / ٢ / ٣٢٥) :

٧٢٢ لما مضى ظاعناً عنَّا فودَّعنَا وكان كالشيب لم يترك له عقبا

٧٢٣ عُدنا إلى حالةٍ لا نستطيع لها وَصْلَ الغوانى وعاب الشيبُ من لعبَا

وقول الأقيشر يرفض خمراً قدمت له (١ / ٨ / ٧٩) :

٧٢٤ فقلتُ اصطحبها أو لغيرى فاهْدِها فما أنا بَعْدَ الشيب ويْلكَ والخمرُ !

٧٢٥ إذا المرء وافى الأربعين ولم يكُنْ … له دون ما يأتى حياء ولا ستْر

٧٢٦ فَدَعْهُ ولا تُنكر عليه الذى أتى … وإنْ جَرّ أرسان الحياة له الدَّهْر

بيد أنه على النقيض من هذا كله نجد أن من الشعراء من لا يرعوى أو يتعظ بعد حلول المشيب ، وبذلك ينقض واحدة من الحجج التى يحتج بها من يدافعون عن المشيب ويحسنونه : ذلك لأن الشاعر يحنّ إلى أحبابه فى حال الكبر ؛ كما كان يحنّ إليهم فى حال الصغر ، ويفتقد مغانيه ومراتع لهوه وصباه ، فيقول **ابن الرومى** (٤٤ / ١٠٥) :

٧٢٧ لاح شيبى فَرِحْتُ أمرح فيه … مرح الطرف فى العذار المحلى

٧٢٨ وتولى الشباب فازددت ركضاً … فى ميادين باطلى إذ تولىّ

٧٢٩ إن من ساءه الزمان بشىء … لأحقُّ امرىء بأن يتسلىّ

ويقول **حميد الأرقط** (١١ / ٤ / ١٦٣٠) :

٧٣٠ وكنتُ خِلْتُ الشيبَ والتبدينا … والهمَّ مما يذهل القرينا

ويقول **أبو نواس** (٥/٦/١٦٦) :

٧٣١ أصبح قلبى به نُدوبُ … أنْدَبَه الشادِنُ الربيبُ

٧٣٢ تماديًا منه فى التَّصابى … وقد علا رأسى المشيبُ

٧٣٣ أظننى ذائقاً حِمامى … وأن إلمامَهُ قريبُ

٧٣٤ إذا فؤادٌ شجاه حب … فقلّما ينفع الطبيب

ويقول **الوليد بن يزيد** يشبب بأم حبيب بنت عبد الرحمن بن مصعب (٥/٧/٥٥) :

٧٣٥ إنما هاج لقلبى … شجوه بعد المشيب

٧٣٦ نظرةٌ قد وقرت فى الـ … ـقلب من أمِّ حبيب

ويقول (٥/٧/١٢) :

٧٣٧ ولقد قضيت – وإن تجلّل لِمّتى … شيبٌ – على رغم العِدا لذّاتى

٧٣٨ من كاعباتٍ كالدُّمى ومناصِفٍ … ومراكب للصيد والنشوات

ولم يزل الشعراء يعنفون أنفسهم على مثل هذه الحال ، فيقول **علقمة بن عبده** (٩ / ٢٨٢) :

٧٣٩ طحا بك قلبٌ فى الحسانِ طَروبُ … بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حَانَ مشيبُ

ويقول **يزيد بن ضبة** من قصيدة له أنشدها بين يدى الوليد بن يزيد (٥/٧/٩٨) :

٧٤٠ لقد لاقيتُ من سَلْمَى ... تباريح التناكير
٧٤١ دعت عينى لها قلبى ... وأسباب المقادير
٧٤٢ وما إنْ مَنْ به شيبٌ ... إذا يصبو بمعذور

ويقول **النابغة** آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر (١٤/١/٢٣٧) :

٧٤٣ وكفكفت منى عبرةً فرددتها ... إلى النّحر منها مستهلٌ ودامعُ
٧٤٤ على حين عاتبتُ المشيب على الصِّبا ... وقلتُ ألمّا أَصْحُ والشيبُ وازع ؟

ويقول **العجاج** (١١/٤/١٦٣٠) :

٧٤٥ بكيتُ والمحتزن البكىُّ ... وإنما يأتى الصِّبا الصبىُّ
٧٤٦ أطرباً وأنت قنسرىٌّ[٢٠]

ويقول **أعشى همدان** (٥/٦/٣٨ ، الأبيات ١ - ٧ ، ١٩ - ٢٢) :

٧٤٧ طلبت الصِّبا إذ علا المكْبَرُ ... وشابَ القذالُ وما تُقْصِرُ
٧٤٨ وبانَ الشبابُ ولذَّاته ... ومثلك فى الجهل لا يُعْذَرُ
٧٤٩ وقال العواذل هل ينتهى ... فَيَقْدَعَهُ الشيبُ أو يُقْصِرُ ؟
٧٥٠ وفى أربعين توفَّيتُها ... وعَشْرٍ مضت لىَ مُستبصر
٧٥١ وموعظةٌ لامرئٍ حازمٍ ... إذا كان يسمعُ أو يُبصر
٧٥٢ فلا تأسفن على ما مضى ... ولا يحزننَّك ما يُدْبِرُ
٧٥٣ فإن الحوادث تُبلى الفتى ... وإن الزمان به يَعْثُرُ

إلى أن يقول :

٧٥٤ فإن أُمْسِ قد لاح فىّ المشيـ ... ـبُ أُمَّ البنين ، فقد أذكُرُ
٧٥٥ رخاءٌ من العيش كنا به ... إذ الدهرُ خالٍ لنا مُصْحِرُ
٧٥٦ وإذ أنا فى عنفوان الشبا ... ب يعجبنى اللهو والسُّمَّرُ
٧٥٧ أُصيدُ الحسان ويصطدننى ... وتعجبنى الكاعب المُعْصِرُ

(٢٠) ناقض أبو نواس الشعراء فى هذا مجانة فقال البيت الذى أوردناه آنفا تحت رقم ٦٥٧ .

ويقول **جندل** (٢١/١١٢/٤٢٨) :

٧٥٨ عُلِّقتُها وقد نـزا فى مِسْحَلى ‏ ‏ ‏ ‏ شيبٌ وقد حـاز الجلا مُرَجَّلى

ويقول **محمد الفراتى** الشاعر السورى (٣٣/١٢/١٧) :

٧٥٩ تيقظ قلبى بعد سبعين حِجةً ‏ ‏ ‏ ‏ فيالشقاء العقل من يقظة القلبِ !

٧٦٠ فأصبحتُ فى جَوٍ من الحبِّ عاطرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وإن كنتُ لم أقعد لأنى على دربِ

٧٦١ هوًى لجَّ بى فى كل فجٍ وسبسبٍ ‏ ‏ ‏ ‏ فما لفؤادى بعد شيبىَ والحبَّ

٧٦٢ إذا ما تذكرتُ الشبابَ وزَهْوَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ أهيم بأحلامـى فيقتلنى كربـى

ويقول **محمود سامى البارودى** (٢٤/٢٢٥) :

٧٦٣ متى أنت عن أُحْمُوقَةِ الحىِّ نازع ‏ ‏ ‏ ‏ وفى الشيب للنفس الأبيَّة وازِعٌ ؟

ويقول **عبد المطلب** (٢٤/٢٣٤) :

٧٦٤ أغرى بكَ الشوق بعد الشيب والهرمِ ‏ ‏ ‏ ‏ سارٍ طوى البيد من نجدٍ إلى الهرم

ويقول **محمد بن عاصم** من قصيدة له فى دير القصير (٤/٧/٦٧٢) :

٧٦٥ كم خلعتُ العِذار فيه ولم أَرْ ‏ ‏ ‏ ‏ عَ مشيباً بمفـرقى وعِذارى !

ويمضى الشعراء فى اعترافهم بعدم الارعواء برغم المشيب ولوم العاذلين ، فيقول **الشاعر** (٢/١/٣١٨) :

٧٦٦ ضيَّعتُ حزمِىَ فى إبعادِىَ الأَمَلاَ ‏ ‏ ‏ ‏ وما ارعويتُ وشيباً رأسِىَ اشتعلا

ويقول **آخر** (٨/٤٤٢) :

٧٦٧ علق الفـؤاد بريق الجهل ‏ ‏ ‏ ‏ وأبرّ واستعصى على الأهـلِ

٧٦٨ وصبا وقـد شابت مفارقُه ‏ ‏ ‏ ‏ سفهاً وكيف إصابة الكهل ؟

٧٦٩ أدركت معتصرى وأدركنى ‏ ‏ ‏ ‏ حلمى ويسر قائدى نعلى

ويقول **جرير** (١٠/٣/٢٨٤) :

٧٧٠ قال العواذل ما لجهلك بعدما ‏ ‏ ‏ ‏ شاب المفارق واكتسين قتيرا ؟

ويقول **النابغة** (٢١/١٠٣/١٤٦) :

٧٧١ دَعَاكَ الهوى واستَجْهَلَتْكَ المنازِلُ ‏ ‏ ‏ ‏ وكيف تصابِى المرء والشيبُ شامل ؟

ويقول سيبويه (٣/٤/٣٥) :

٧٧٢ ما بال جهلِكَ بعد الحِلمِ والدين　　　وقد عَلاكَ مشيبٌ حين لا حين ؟

ويقول ابن عبد ربه (١/٢/٣٥٠) :

٧٧٣ قالوا شبابُك قد وَلّىً فقلتُ لهم　　　هل من جديدٍ على كرِّ الجديدَيْن ؟
٧٧٤ صِلْ مَنْ هويت وإن أبدى معاتبةً　　　فأطيب العيش وَصْلٌ بين إِلْفَيْنِ
٧٧٥ واقطع حبائل خِدْنٍ لا تلائِمُهُ　　　فربما ضاقت الدنيا على اثنين

ويقول أبو العباس أحمد بن مسعود محمد الخزرجي القرطبي (٥٦/٥٤) :

٧٧٦ لاموا على صبوتى والشيب مبتسمٌ　　　كالزّهر يُبدى ابتهاجاً فى خمائله
٧٧٧ فقلتُ والوجدُ يطوينى وينشُرنى　　　أواخِرُ اليوم أحلى من أوائله
٧٧٨ لم أترك الأنس حيناً من أحاينه　　　فكيف أغفل عنه فى أصائله ؟

ويروى أنه كان بأمج رجل يقال له حميد ، وكان مفتوناً بالخمر ، فهجاه ابن عم له وقال فيه (١/٨/٦٧) :

٧٧٩ حميدٌ الذى أمــجٌ دارُهُ　　　أخو الخمر ذو الشيبة الأَصْلَعُ
٧٨٠ عَلاهُ المشيــبُ على شُربها　　　— وكان كريماً — فما ينزِعُ

ولعل مِنْ أحسن ما يمكن أن يقال فى الدفاع عن المشيب أن نسمع فتاة تتمنى لو تزوجت رجلاً شابًّا ، ولكن تحلى بحكمة الشيوخ ، أو تحلى رأسه بمشيب . تلك هى ابنة ذى الإصبع . فقد حدث أن ذا الإصبع استمع إلى متحدثٍ لبناته الأربعة وهُنَّ لا يعلمن ، وكانت كلٌّ منهن تتحدث عن أمنيتها فى الرجل الذى تتمنى أن يكون زوجاً لها ، فسمع ابنته الثالثة تقول (٦/٢/٣٧٦) :

٧٨١ ألا ليْته يملا الجِفَانَ وليتَهُ　　　له جَفْنَةٌ تشقى بها النِّيبُ وَالجُزُرُ
٧٨٢ به مُحكَماتُ الشيبِ من غير كبرة　　　ولا هو بالفانى ولا الضرعُ الغمْرُ

وفى الدفاع عن المشيب يدافع الشاعر أيضاً عن الصلع فهو — كما سبق أن أشرنا — أحد البديلين بعد ذهاب الشباب ، كما أن الأصلع كالأشيب سواء بسواء من حيث تعرضه للفكاهة والسخرية والملام ، مثال ذلك : ماكتبه عبد اللطيف الخشن الشاعر المهجرى فى كتاب الوقائع فى حفلة

شعرية أقيمت يوم تأسيس « الرابطة القلمية » يشير إلى صلعة زميله الشاعر جورج صيدح (٤٨ / ٣٣٧) :

٧٨٣ لقد صُمنـا زماناً عن غذانَا وأفطرنا على الرأس الصليـع !

فقام جورج صيدح يدافع عن صلعته فقال :

٧٨٤ صلعة الخير لا أصابتك عينٌ من عيونِ الحُسَّادِ ذاتِ الشَّواظِ
٧٨٥ إن لى صلعة أجلّ من الشيـ ـب وأحرى بمدحـةِ القُرّاظ
٧٨٦ يشتهى المشـط أن يمرّ عليها بخيوط دقيقة أو غـلاظ
٧٨٧ ما أنا الأصلـع الوحيدُ فيهجو صلعتى كلّ شاعرٍ مغتاظ !

انظر أيضاً ٣٥ ، ٣٤٩ ، ٦٥٨ – ٦٦٧)

٢ – د – ٢ : حتمية المشيب

وفى مجال الدفاع عن المشيب ، والرد على العاذلين واللائمين – يحاول الشعراء أن يدلّلوا على أن المشيب أمر حتمى لا منجى ولا مهرب منه ، وأن حتمية المشيب إنما هى كاستحالة عودة الشباب سواء بسواء . ويعبر أبو كبير الشاعر الهذلى عن ذلك فى البيت التالى الذى سبق أن أوردناه فى الفصل الأول تحت رقم ١٧٠ :

أزهير هل عن شيبة مِنْ مَعْدِلِ أو لا سبيل إلى الشباب الأول ؟

ونراه يستخدم فى مطلع قصائد أخرى أبياتاً شبيهة بهذا البيت من حيث الألفاظ والبناء ، فيقول فى مطلع إحداها (٥٠ / ١٠٤) :

٧٨٨ أزهير هل عن شيبة من مَصْرِفِ أو لا خلـودَ لباذلٍ متكلِّفِ ؟

ويقول فى مطلع أخرى (٥٠ / ١١١) :

٧٨٩ أزهير هل عن شيبة من مَعْكَمِ أو لا خلودَ لباذلٍ مُتكرِّمِ ؟

ويرى ساعدة بن جؤية الشاعر الهذلى أن الشيب داء لا دواء له ، وليس لصاحبه برء منه ، فيقول من قصيدة طويلة له (١٩ / ٢٨٦ ، البيت الثانى) :

٧٩٠ فالشيب داء شديد لا دواء له ولا لصاحبه برء من السقم !

ويقول أبو تمام (١٢/٣/٣٧٠) :

٧٩١ كل داء يُرْجَى الدواء له إلاَّ م القطيعتين ميتةً ومشيبا

وإن حتمية المشيب لترتبط بطول العمر ، ويروى لنا صاحب العقد الفريد أن أبا دلف دخل على المأمون وعنده جارية له ، وقد ترك الخضاب أبو دلف . فغمز المأمون الجارية فقالت : شِبْت أبا دلف ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! فسكت عنها أبو دلف ، فقال له المأمون : أجبها أبا دلف فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال (٢/٣٥٦) :

٧٩٢ تهزَّأتْ أن رأتْ شيبي فقلتُ لها لا تهزئي ، من يَطُلْ عمرٌ به يشب

٧٩٣ شَيبُ الرجال لهم زَيْنٌ ومكْرمةٌ وشيبكُنَّ لكُنَّ الويلُ فاكتئبي !

وفى حتمية المشيب يقول ابن نباتة (١٦/٢/٢٢٣) :

٧٩٤ وإذا الفتى قطع السنين عديدةً شابَ الحياة فظلَّ يُدعى شائبا

ويقول الشريف المرتضى (١٢/٣/٣٧٧) :

٧٩٥ صار منى مثل الثغامة ماكا نَ زمانــاً حلولكاً كالغرابِ

٧٩٦ ليس يبقى شيء على حالِهِ الأوّل م فى كــرّ هذه الأحقابِ

ويقول وهو يتحسر أيضاً على الشباب (١٢/٣/٣٧٣ – ٣٧٤) :

٧٩٧ جزعَتْ لوخطات المشيب وإنَّما بلغ الشبابُ مدى الكمال فنوّرا

٧٩٨ والشيب إن فكرت فيه موردٌ لا بدّ يورده الفتى إن عَمَّرا

٧٩٩ يبيض بعد سواده الشَّعر الذى إن لم يزره الشيبُ واراه الثرى

٨٠٠ زمن الشبيبة لا عدتـك تحيةٌ وسقاك منهمر الحيا ما استغزرا

٨٠١ فلطالما أضحى ردائى ساحباً فى ظلكَ الوافى وعُودى أخضرا

٨٠٢ أيام يرمقنى الغزالُ إذا رنا شغفا ويطرقنى الخيال إذا سرى

ويقول حرثان ذو الإصبع (٦/٢/٣٧٧) :

٨٠٣ أهلكنا الليـل والنهـارُ معًا والدهرُ يَغْدُو مُصمِّماً جَذَعًا[٢١]

٨٠٤ فليس فيما أصابنـى عجبٌ إن كنتُ شَيْبا أنكرتُ أو صلعا

(٢١) أوردنا البيتين الثالث والرابع من هذه الأبيات فى الفصل الأول تحت رقمى ١٧٩ – ١٨٠ .

ويقول الشاعر (٢٨/١٩٠) :

٨٠٥ أشــاب الصغير وأفنى الكبير م كـرّ الغداة ومَـرُّ العشىّ

ويقول ابن عبد ربه (١/٢/٣٥٠) :

٨٠٦ قالوا شبابك قد ولى فقلت لهم هل من جديدٍ على كرِّ الجديدَيْن؟

ويقول أيضاً (١/٢/٣٥٠ ، ٤/٩/٨٢٩) :

٨٠٧ سوادُ المرءِ تنفِدُهُ الليالى وإن كانت تصيرُ إلى نفادِ[٢٢]
٨٠٨ فأسْوَدُهُ يعــودُ إلى بياضٍ وأبْيَضُه يعــود إلى سوادِ !

وفى هذا المعنى يقول المتنبى (٤/٤/٣٥٥) :

٨٠٩ تسوّد الشمس منــا بيضَ أوجهنا ولا تسوّد بيض العذر واللِّمم
٨١٠ وكان حالهمــا فى الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا إلى حَكَمِ

ويروى أن أبا الأسود الدؤلى قد دخل على معاوية وقد خضب ، فقال : لقد أصبحت يا أبا أسود جميلاً ، فلو علقت تميمة ! فأنشأ أبو الأسود يقول هذين البيتين (١/٢/٣٥٤) :

٨١١ أفنى الشبابَ الذى فارقتُ بهجتَهُ مَرُّ الجديدين من آتٍ ومُنطلِقِ
٨١٢ لم يُبْقِيا لىَ من طـول اختلافِهِا شيئاً يُخاف عليه لذعةُ الحَدَقِ

كذلك يروى أن مالك بن أسماء بن خارجة كان قد قال لجاريته : اخضبى رأسى ولحيتى فقالت : دعنى ، قد عييت مما أرقعك ! فقال (١/٢/٣٥٤) :

٨١٣ عَيَّرتْنى خَلَقاً أبليت جِدَّته وهل رأيتِ جديداً لم يَعُدْ خَلَقَا ؟

ومن ثم كان مجىء المشيب أمراً طبيعيًّا ، تماماً كما يجىء النهار بعد الليل ، وفى ذلك يقول السراج الوراق يرد على من أنكرت شيبه (١٢/٣/٣٨٢) :

٨١٤ وقالت يا سراجُ ، علاكَ شيبٌ فَدَعْ لجديده خلــعَ العذارِ
٨١٥ فقلت لهــا : نهــارٌ بعد ليلٍ فما يدعوكِ أنتِ إلى النفارِ؟
٨١٦ فقالت : قد صدقت وما علمنا بِأَضْيعَ من سراجٍ فى نهارِ !

---

(٢٢) ورد هذا البيت فى يتيمة الدهر ٩/٨٢٩ مبتدئا بلفظ « شباب » بدلا من « سواد » .

وإذن فالمشيب لا مردّ له ، ولا حيلة للإنسان فى دفعه ، ولا جدوى من مقاومته ، فيقول **أبو العلاء المعرى** (١١/٣/١٢٥٢) :

٨١٧ طويتُ الصِّبا طىَّ السِّجلِّ وزارنى زمانٌ له بالشيب حُكْمٌ وإسْجالُ

ويقول **الشريف المرتضى** (١٢/٣/٣٧٧) :

٨١٨ ولو كان فيما يُحدث الدهرُ حيلةٌ أبيتُ على هذا المشيب إباءَ
٨١٩ فلا تنكرى لوناً تبدّلتُ غيرهُ كمستبدلٍ بعد الرداء رداءَ
٨٢٠ فإنى على العهد الذى تعهدينه حفاظاً لما استحفظتِنى ووفاءَ
٨٢١ كأن الليالى عنه لما رميننى جَلَونَ صداءً أوكشفن غطاءَ

ويقول **أبو الحسن محمد بن الوزير الحافظ** (٤/٧/٦٦٠) :

٨٢٢ منذ حَلَّ السوادُ حَلَّ البياضُ واعتداءاته طِوالٌ عِراضُ
٨٢٣ وإذا ماطغى المشيب فلا المنقاش م يقوى بــه ولا المقــراضُ
٨٢٤ وكثيراً أرى جساماً صحاحاً لأناسٍ فيهــا قلوبٌ مِراضُ

وعن عدم جدوى مقاومة المشيب أيضاً قال **أعرابى** ، ويقال الشعر لأبى دلف (٤٩/٢/٣٢٥) :

٨٢٥ فى كل يومٍ مــن الأيام نابتةٌ كأنما نبتتْ فيه على بَصَرى
٨٢٦ لئن قرضتُك بالمقراضِ عن بصرى لما قرضتُك عن همٍّ ولا فِكرى

ومادام المشيب أمراً حتمياً فإنه ينبغى علينا أن نكفّ عن ذمه ، وفى ذلك يقول **عبد الله بن حنين الحيرى** من أبيات له (٦/٢/٣٥٩) :

٨٢٧ هلا بكيت على الشباب الذاهِب وكففت عن ذمِّ المشيب الآئبِ !

بل إن حتمية المشيب تجعل المرء يعتاده ولا يرضى عنه بديلاً ، فيقول **المتنبى** (٥٨/ ٩٠) :

٨٢٨ خُـلِقْتُ أَلوفاً لو رددتُ إلى الصِّبـا لفارقتُ شيبى موجعَ القلب باكيا !

وفى مجال الدفاع عن المشيب نجد هذه الأبيات الطريفة للشاعر المهجرى **إلياس حبيب فرحات** قالها فى ابنته الصغرى « منى » التى تضاحكت من صلعته ، وفيها يؤكد حتمية المشيب (٤٨/٤٨٧) :

٨٢٩ عبثت «مناى» بصلعتى وتضاحكت لما رأتنى للتمشط أنشطُ
٨٣٠ ومضت بلثغتها تقول لأمها : أرأيت «ماما» أقرعاً يتمشط ؟
٨٣١ أبنيتى إنّ الحياة لسُلّمٌ يهنيك أنك تصعدين وأهبطُ
٨٣٢ والدهر يا ولدى يغَرْبِلُ لمَّتى فالبيضُ تثبتُ والحوالِكُ تسْقُط !

٢ – د – ٣ الشيب المبكر

من بين المعاذير التى يسوقها الشاعر دفاعاً عن المشيب قوله : إنه شيب مبكر قد جاء قبل أوانه ، وفى هذا المعنى يخوض معظم الشعراء ، فيقول **عبد المحسن الصورى** (٤٨٨/٦/٤) :

٨٣٣ فى أوان الشباب عاجلنى الشيب م فهذا مـن أول الدنّ دردى

وأنشد **ابن الأعرابى** (١/١٠٠/٢١) :

٨٣٤ قد هرّمتنى قبل إبّان الهَرَمْ وَهْىَ إذا قلت كُلى قالت : نَعَمْ
٨٣٥ صحيحة المعدة من كلِّ سقَمْ لو أَكَلَتْ فِيلَيْن لم تخْش البَشَمْ !

ويقول **الشريف المرتضى** (٣٧٤/٣/١٢) :

٨٣٦ ولقد أتانى الشيب فى عصر الصّبا حتّى لبستُ به شباباً أبيضا
٨٣٧ لم ينتقص منى أوان نزولـهِ بأساً أطال على العداة وأعرضا
٧٣٨ فكأنما كنـت امرأً مستبدلاً أثوابه كـره السوادَ فبيَّضا

ومن بين الأسباب التى يعزى الشعراء إليها الشيب المبكر كثرة **الهموم** ، كقول **الشاعر** (٣٢٤/٢/٤٩) :

٨٣٩ شاب رأسى وما رأيت شيبَ الرّأس م إلا من فضل شيب الفؤادِ
٨٤٠ وكذاك القلوب فى كل بؤس ونعيم طلائـعُ الأجسـاد
٨٤١ طال إنكارى البياضَ فإن عمّرت م شيئاً أنكرتُ لـونَ السّوادِ

ونحن نقرأ عن **ابن نباتة المصرى** « أنه كان كثير الشكوى من ا كبر ، شديد التألم من الشيب ، فهو فى أكثر شعره يندب شبابه ، ويبكى ماضى قوته ، ويفزع مهولاً من الشيب والهرم » ونجده هنا يعلل اشتعال شيبه بكثرة الهموم فيقول : (٢١٣/٢/١٦) :

٨٤٢ مَنْ يحارب حوادث الدهر يَخْفَى لونُ فَوْدَيْه فى غُبار الحروبِ
٨٤٣ مَنْ يَعُمْ فى بحار همِّى يظهرْ زَبَدٌ فوق فَرْعِهِ الغربيب

٨٤٤ أىُّ فرعٍ جَوْنٍ على عنت الأيام م يبقى ؟ وأىُّ غصنٍ رطيب ؟
٨٤٥ لو هَمَى ماءُ معطِّفَىَّ من اللين م لأفنتهُ مهجتى بلهيب

ويقول (١٦/٢/٢١٣) :

٨٤٦ أمَّا الهموم فبحر خُضْتُ زاخِرهُ أما ترى فوق رأسى فائض الزَّبَدِ ؟

ويقول من قصيدة يرثى ولداً له مات صغيراً (١٥/١/٢١٢) :

٨٤٧ أبُنَىَّ ، قد وَقَفَتْ علىَّ حوادثٌ فوقفن مــن طَلَلٍ على آثارِ
٨٤٨ ومضى البياضُ من الحياة وطيبها لكنها أبْقته فــوق عِذارى

ويقول المتنبى (٤/٤/٣٣٤) :

٨٤٩ والهَــمُّ يخترمُ الجسيم نحافــةً ويشيب ناصية الصَّبى ويُهْرِم

وقد يكون الشيب المبكر من الخطوب والمحن كقول كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه (٣٥/٦٢) :

٨٥٠ تتابع أحداثٍ تخرَّمْنَ إخوتى وشيَّبْنَ رأسى والخطوبُ تشيب

وقال ابن زيدون لما اشتد حزنه وهو فى سجنه ورأى الشيب فى رأسه فأنشأ يشكو ويستضعف :

٨٥١ لم تَطو بُرْدَ شبابى كَبْرة ، وأرى بَرْق المشيب اعتلى فى عارض الشَّعَر
٨٥٢ قبل الثلاثين إذ عهدُ الصِّبا كثبٌ وللشبيبة غصــنٌ غيرُ مُهْتَصر
٨٥٣ ياللرزايا ! لقد شافهتُ منهلها غَمْراً ، فما أشربُ المكروه بالغُمَر

وقد يكون الشيب المبكر من الأهوال كهول الليل فى قول أبى العلاء المعرى (١١/١/٧٢١) :

٨٥٤ وجنح يملأ الفَوْدَيْن شَيباً ولكن يجعلُ الصحراء خالا

وكذلك هول السنين ، كقول الصمّة بن عبد الله القشيرى (٩/٢٣٦ ، ٥٥/١/٣٢٠) :

٨٥٥ ذرانى مــن نجدٍ فإن سنينَهُ لَعِبْن بنا شيباً وشيَّبْنَنا مُرْدا[٢٣]

ويتحدث حريث بن سلمة بن مرارة عن الأهوال التى يتعرض لها الرجل فيشتعل منها الرأس

(٢٣) ورد هذا البيت فى شرح ابن عقيل ١/٣١ مبتدئا بلفظ « دعانى » بدلا من « ذرانى » .

شيباً على حين أن النساء منعمات فى الخدور ، ومع ذلك ينكرن عليهم ذلك المشيب المبكر فيقول (٥٣٤/٨) :

٨٥٦ تقول ابنة العمرىّ لما رأيتها : تَنكرتَ حتى كدتُ منكَ أُهالُ
٨٥٧ فإن تعجبى منى عميرُ فقد أتت ليالٍ وأيـامٌ علىّ طوالُ
٨٥٨ وإنى لمن قوم تشيب سراتهم كذاك وفيهم نائلٌ وفعال
٨٥٩ ولو لقيتْ ماكنتُ ألقى من العدى إذَنْ سال منها مفرق وقذال
٨٦٠ ولكنها فى كلّةٍ كل شتوةٍ وفى الصيف كِنٌّ بارد وحجالُ
٨٦١ تصان تعل المسك حتى كأنها إذا وضعت عنها النصيف غزال

وأهوال الحروب والوقائع والحوادث كلها تشعل الرأس شيباً قبل الأوان ، فيقول **الشاعر** (٥٤٨/١١٦/٢١) :

٨٦٢ فظلال السيوف شيبن رأسى واعتناق فى الحرب صُهْبَ السبالِ

ويقول **أبو الطفيل** عامر بن واثلة بن عبد الله عمير الصحابى (٣١/٤/٣) :

٨٦٣ أيدعوننى شيخاً وقد عشتُ حقبةً وهنَّ من الأزواج نحوى نوازِعُ
٨٦٤ وما شاب رأسى من سنين تتابعت علىَّ ولكن شيبتنى الوقائع [٢٤]

ويقول **عبد الله بن قيس الرقيات** (٤٢٣/٦/١) :

٨٦٥ إن الحوادث بالمدينة قد شيبننى وقرعْنَ مروتيه

وقد يكون الشيب المبكر بسبب **الحزن** ، كقول **عبد الله بن الزبير الأسدى** (٢٢٩/٢/٣) :

٨٦٦ رمى الحدثان نسوة آل حربٍ بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمـودَا
٨٦٧ فَرَدَّ شعورهن السود بيضـاً ورَدَّ وجوهَهُنَّ البيضَ سُودا

وقد يكون الشيب المبكر من **أهوال الهوى وصدود الغوانى** فيقول **ابن فارس** من أبيات كتبها لأبى القاسم بن حسولة (٥٩/٤٠) :

٨٦٨ وأنتِ التى شيَّبْت – قبل أوانه – شبابى ، سقى الغُرُّ الغوانى شَبابَكِ

---

(٢٤) جاء فى المنتخب ٢ /٧٧ ونهاية الأرب ٣ /٦٥ أن هذا البيت من قول عروة بن الورد .

ويحدثنا أبو العباس النامي أنه لقي من حبيبته ماأفشى الشيب في لمته فيقول (٣٦٧/٤/٤) :

٨٦٩ سلاها إذا اسْوَدَّ الهوى فى ابيضاضه وإلاّ سلانى ، كيف بَيَّضَ مِسْوَدِّى ؟

٨٧٠ كأنَّ برأسى عسكرَيْن تحاربا فقد كَثَّرَ استئمانُ جُنْدٍ إلى جُنْدِ !

ويقول الشاعر (٧٨/٧/١) :

٨٧١ تكنفنى الهوى طفلاً فشيَّبنى وما اكتهلا

ويقول ابن سناء الملك فى مطلع قصيدة دالية موجهة إلى الوزير القاضى الفاضل (٦٠/١/٢٧) :

٨٧٢ شيَّبَ فَوْدى رمادُ نارِ فؤادى من رمى قلبى بهذا الرمادِ؟

ويقول أبو فراس (١١١/٧/٤٥) :

٨٧٣ وما إنْ شِبْتُ من كبر ولكن لقيتُ من الأحبة ما أشابا

وقد يكون الشيب المبكر بسبب الفراق وهجران الأحبة كقول أبى عثمان سعيد بن هاشم الخالدى ، وهو مما ينسب إلى الوزير المهلبىّ (١٠٠٧/١١/٤) :

٨٧٤ فديتُك ماشبتُ من كَبْرةٍ وهذى سِنِّى وهذا الحسابُ

٨٧٥ ولكن هجرتَ ، فحلَّ المشيب ولو قد وَصَلْتَ لعاد الشباب

وقوله (١٠٠٧/١١/٤) :

٨٧٦ متبرمٌ بعتابهِ مُسْتعذبٌ لعذابِهِ

٨٧٧ هَجَرَ العميد تَعمُّداً فغدا وراحَ لما بِه

٨٧٨ وكساه ثوب مشيبِهِ فى عنفوانِ شبَابِه

٨٧٩ فتراه يؤذِنُ فى أوا نِ مجيئه بذهابِهِ

وقول البهاء الساعاتى الدمشقى (١٢٢/٥٦) :

٨٨٠ فؤادى وفودى بعد لمياء أشيبُ وقلبى على جمر الغَضَى يتقلَّبُ !

وقول الشاعر (٢٥٢/٦/٥) :

٨٨١ عبد مُسنِّى وأنعمى قد ملكتُم قيادِيَهْ

٨٨٢ شاب رأسى ولم تشبْ وابلائى لِداتيه !

وقول **محمود سامي البارودي** في مطلع قصيدة يصف فيها الفراق (٢٥٣/١/١٥) :

٨٨٣ محا البينُ ما أبقت عيونُ المها منِّى ‏ ‏ ‏ وشبتُ ولم أقض اللُّبانةَ من سِنِّي

وقول **عبد الله الصفرى** (٦٧٧/٨/٤) :

٨٨٤ بدا الشيبُ فى رأسى فقالت تعجباً ‏ ‏ ‏ لقد شِبتَ من هجرى ، وأنت صغيرُ

٨٨٥ فقلتُ لها : لاغرو ، إن وصالكم ‏ ‏ ‏ يردّ شباب المرء وهْوَ كبيرُ

وقول **ابن عبد ربه** (٣٠٤/٦/١) :

٨٨٦ كتب الدمعُ بخدّى عهدهُ ‏ ‏ ‏ للهوى والشوقُ يُملى ماكتَبْ

٨٨٧ ماالجهلى ماأراهُ ذاهِباً ‏ ‏ ‏ وسوادُ الرأسِ منى قد ذَهَبْ

٨٨٨ «قالت الخنساء لما جئتُها : ‏ ‏ ‏ شاب بعدى رأس هذا واشتهبْ» !

وقد يكون مبعث الشيب المبكر **محنة الاغتراب** ، كقول **الحسن بن محمد بن بابل** (٨١١/٩/٤) :

٨٨٩ ألا مالجسمى قد علاهُ شحوبُ ؟ ‏ ‏ ‏ ومابالُ قلبى ضَامَرْته كروبُ ؟

٨٩٠ ومابال أحشائى تَوَقّدُ لوعةً ؟ ‏ ‏ ‏ ومابالُ رأسى قد علاهُ مشيبُ ؟

٨٩١ وماذاك إلا أنْ رمتنِى يدُ النّوى ‏ ‏ ‏ وأنى فى أرجاء مصر غريبُ

وقول **فوزى المعلوف** الشاعر المهجرى عن نفسه فى ملحمته الشعرية بعنوان «بساط الريح» (٢٧٦/٤٨) :

٨٩٢ هو فى ميعة الشباب ولوحدقت م فيه ‏ ‏ ‏ ألفيت شيخاً هزيلا

٨٩٣ فهو لايعرف التبسُّم إلاّ ‏ ‏ ‏ عندما يستعيد حلماً جميلا

وقد يكون الشيب المبكر من **نقص المال** الذى يمنح المرء قوة وسلطاناً ، كقول **الطرماح** (٤٨٦/٨) :

٨٩٤ وشيبنِى ألاّ أزال مناهضــاً ‏ ‏ ‏ بغير قوىً أنزو بها وأبوعُ[٢٥]

٨٩٥ وأن رجال المال أضحَوا ومالهُم ‏ ‏ ‏ لهم عند أبواب الملوك شفيع

٨٩٦ أمخترمى ريب المنون ولم أنل ‏ ‏ ‏ من المال ما أعصى به وأطيعُ ؟

---

(٢٥) ورد عجز هذا البيت فى المصدر نفسه ص ٥٤٤ هكذا : بغير ثراً أثرو به وأبوعُ .

وقد يكون من سطوة الرجال ، كقول **العبدوسى محمد بن عبدوس الواسطى** (١٨/٥٦) :

٨٩٧ اسْمعْ أخى مــن أخى اختبارِ قد شَيَّبَتْ رأسه الرِّجالُ

وقد يكون الشيب المبكر مبعثه جور الحكام : كقول **ابن عبد ربه** (٣٥٠/٢/١) :

٨٩٨ جَارَ المشيبُ على رأسى فَغَيَّرهُ لما رأى عندنا الحكامَ قد جاروا

٨٩٩ كأنما جُنَّ ليلٌ فى مفارقه فاعتاقه من بياض الصُّبح إسفارُ

وقول **أبى الطيب** (٨٥٦/٢/١١) :

٩٠٠ لقد شَبَّ فى هذا الزمان كهولُه لديك وشابتْ عند غيرك مُرْدُهُ

ومن الشعراء من لايحاول تبرير المشيب بأنه حلّ قبل أوانه ، وإنما يكتفى بالعجب والاستنكار ، فيقول **أبو فراس الحمدانى** من قصيدة له (٧٠/١/٤) :

٩٠١ عذيرى مِنْ طوالعَ فى عِذارى ومن رَدِّ الشباب المستعــارِ

٩٠٢ وثوبٍ كنتُ ألبسُه أنيــقٍ أجرِّر ذيله بين الجــوارى

٩٠٣ وما زادت عن العشرين سنّى فما عذر المشيب إلى عِذارى

وما استمتعتُ من داعى التصّابى إلى أن جاءنى داعى الوقارِ[٢٦]

وقد أخذ البيت الثالث من قول **أبى نواس** :

٩٠٤ وإذا عــددتُ السِنَ كَـمْ هى لم أجدْ للشَّيبِ عُذراً للنزول براسى

ولايرى **ابن الرومى** عجباً فى أن يشيب الفتى ، فيقول فى مطلع قصيدة يخاطب فيها علىّ بن يحيى (٨٢/٣٥) :

٩٠٥ شاب رأسى ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب

ويقول (١٠٨/٧) :

٩٠٦ قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن ترى النار فى القضيب الرطيب !

(٢٦) سبق أن أوردنا هذا البيت تحت رقم ٦٤٢ من هذا الفصل ولذلك لم نعطه هنا رقما .

الفصل الثالث

مقاومة المشيب : الخضــــاب

ومما يفعله المشيب أيضاً أنه يضطر الشاعر إلى اللجوء إلى الخضاب طوعاً أو كرهاً : فهو بعد أن يستنفد الحجج فى الدفاع عن المشيب — يحاول أن يقاومه ، وذلك بإخفائه بالخضاب . غير أن الشعراء لايجمعهم فى ذلك رأى واحد : فمنهم : من يستحسن الخضاب ويحضّ عليه ، ومنهم من يستهجنه ويراه نفاقاً وزوراً ، ومنهم من يرى أنه ضرورة لابدّ منها ويلجأ المرء إليها على كره منه ، ومنهم من يرى أنه لاجدوى منه .

٣ — أ : استحسان الخضاب والحضّ عليه :

مما قيل فى استحسان الخضاب أنه أحد الشبابين ، وأنه تذكرة الشباب ، فنجد أن **ابن المعتز** مثلاً يرى أن الخضاب شباب جديد فيقول (١١٠/٧) :

٩٠٧ وقالوا النصول مشيب جديد ... فقلت الخضاب شباب جديد

٩٠٨ أساء هذا بإحسان ذا ... فإن عاد ذاك فهْو يعود

ومن الشعراء من يرى أن الخضاب تجديدٌ لما أخلقه صرف الزمان ، ونحن نقرأ أنه كانت عند معاوية جارية أعز جواريه عنده ، كانت متولية خضابه ، فغناه **بديح** [٢٧] فى مجلس عبد الله بن جعفر (٢٠/٧/١ — ٢١) :

٩٠٩ أليس عندكَ شكرٌ للّتى جَعَلتْ ... ماابيضّ من قادماتِ الريش كالحُمَمِ

٩١٠ وَجَدّدَتْ منكَ ماقد كان أخْلَقَهُ ... صرفُ الزمانِ وطولُ الدَّهرِ والقِدمِ ؟

ومن الشعراء من يرى أن الخضاب إماتة للشيب ، ومن ثم فهو مبعث للحياة ولو إلى حين ، فيقول **الشاعر** (١١٠/٧) :

---

(٢٧) جاء فى العقد الفريد ٢/٣٥٤ أن الجارية هى التى غنت .

٩١١ الشيب موتى ولكن فى إماتته تحيا الليالى قليلاتٍ وأياما

ويبرر المتنبى اللجوء إلى الخضاب بأن أحسن الشعر هو الفاحم السواد ، فيقول (٣٥٥/٤/٤) :

٩١٢ مُشِبّ الذى يبكى الشبابَ مُشيبُهُ فكيف تَوَقِّيهِ وبانيه هادِمُهْ ؟
٩١٣ وماخَضَب الناس البياضَ لأنه قبيحٌ ، ولكنْ أحسنُ الشَّعر فاحِمُهْ

ومن الشعراء من يخضب الشيب يبغى ودّ الغوانى ، كقول أبى سهل النوبختى (٣٨٣/٣/١٢) :

٩١٤ أخضبُ الشيبَ للغوانى أبغى به عندها وِدادا !
٩١٥ لكنْ خضابى على شبابى لبستُ من بعده الحدادا

ونجد فكرة الحِداد هذه فى أبيات لابن الرومى سيأتى ذكرها فى نهاية هذا الفصل ، وفى قول يحيى ابن عبد الملك بن هذيل يلتمس عذرا لخضابه (٧٢٧/٨/٤) :

٩١٦ لما رأت شَعرى تغيّر لونُه ورأته محتجباً وراء حجابِ
٩١٧ قالت : خضبتَ ، فقلت شيبى إنما لَبِسَ الحدادَ على ذهابِ شبابى !

٣ – ب : استهجان الخضاب ورفضه :

قيل فى ذم الخضاب : إن الإسكندر قال لرجل خضب الشيب : هب أنك خضبت سائر آثار الكبر ، وفى هذا المعنى يقول أبو العباس (٣١٣/١/٥٥) :

٩١٨ تغضّ الشيبَ جَهْدَكَ بالخضابِ لترجع فيكَ أُبهةُ الشبابِ !
٩١٩ فكيف وقد كساك الشيبُ ثوباً كأخلقِ مايكونُ من الثياب ؟
٩٢٠ به ظهرتْ معايبُ فيك شتّى حوادِثُ لم تكن لك فى حساب
٩٢١ تعيب الشيبَ من سفَهٍ وجهلٍ وأعْيَبُ منه شُغْلُكَ بالخضاب !

ويقول محمود بن الحسين كشاجم الكاتب (٨٤/٢/١٤) :

٩٢٢ ياخاضبَ الشيب والأيام تظهره هذا شبابٌ لعمرُ الله مصنوعُ !
٩٢٣ أذكرتنى قول ذى لُبٍّ وتجربةٍ فى مثله لك تأديبٌ وتقريعُ
٩٢٤ إن الجديدَ إذا مازيد فى خَلَقٍ تَبيّن الناسُ أن الثوبَ مرقوعُ

ومن الشعراء من يحض على رفض الخضاب ؛ لأنه يذهب بجمال المشيب ، كقول **الشاعر** (١٢٨٤/٣/١١) :

٩٢٥ الشيبُ أبهى من الشباب فلا تُهجِّنْه بالخضابِ
٩٢٦ هذا غرابٌ وذاك بازٌ والبازُ أبهى من الغُرابِ

وبالإضافة إلى هذا كله نجد من الشعراء من يرى أن الخضاب أمرٌ يدعو إلى التعيير به ؛ لأنه يزيد من قبح المشيب ، **فيقول الشاعر** (١١١/٧) :

٩٢٧ خضبتُ شيبي ليخفى وكان ذاكَ لِعِلَّهْ
٩٢٨ فقيل شيخٌ خضيبٌ قد زوَّدَ الطين بِلَّهْ

ويرى **المتنبي** أن الخضاب كذب وخداع فنسمعه يقول (١١١/٧) :

٩٢٩ ومن هوى كل ماكانت مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
٩٣٠ ومن هوى الصدقَ فى قوله وعادته رغبت عن شَعر فى الوجه مكذوب

وفى هذا المعنى نجد أن **أبا إسحق الصابى** يضرب المثل على الفرق بين الصديق المخلص والصديق المنافق بسواد الشعر الطبيعى والسواد الناتج عن الخضاب فيقول من أبيات له ردَّ بها على كتاب بعث به إليه أبو محمد جعفر بن ورقاء الشيبانى يعاتبه على انقطاعه عن زيارته (١٤٥/٢/٤) :

٩٣١ لاتفرحَنَّ من الصديق بشاهدٍ حتى يكون موافقاً للغيبِ
٩٣٢ وتأمَّل المسْوَدَّ من شَعْرِ الفتى أهو الشبيبةُ أم خِضابُ الشيبِ؟

ويرى **ابن طباطبا** أن الخضاب غشّ وخديعة ، فنسمعه يقول (٦٤٩/٧/٤) :

٩٣٣ قالت أراكَ خضبتَ الشيبَ ، قلت لها سترْتُه عنكِ ياسَمْعى ويابَصَرى
٩٣٤ فاستضحكتْ ثم قالت من تعجّبها : تكاثر الغِشُّ حتى صار فى الشَّعر !

ويرى **السرىّ الرفاء** أن الخضاب زور ، وأن المشيب إنما هو خضاب الله ، فيقول (٨٩٩/١٠/٤) :

٩٣٥ خَلَتْ منه ميادين التَّصابى وعُرِّىَ منه أفراس الشبابِ
٩٣٦ وزَهَّدَهُ خضابُ اللهِ لمّا تولى عنه فى زَوْرِ الخضاب

ومن ثم : فإن ستر الشيب بالخضاب ليس هو الستر الحقيق وإن مايسعى إليه المرء هو أن يستر الله شيبه من النار وفى ذلك يقول الشاعر (١١١/٧) :

٩٣٧ ياخاضِبَ الشيب بالحِنَّا ليستره سَلِ الإلهَ له ستْراً من النار

ويستهجن آخر الخضاب ؛ لأنه يعتبره مشاركة للخالق فى صبغته فيقول (١١١/٧) :

٩٣٨ يا خاضب اللحية ماتستحى تشارك الرحمن فى صبغته !

٩٣٩ أقبح شيء شاع بين الوَرى أن الفتى يكذب فى لحيته

ومن الشعراء من يرفض حض الغوانى لهم على الخضاب ؛ لأنهم يرون أن المشيب نذير ينبغى الإصغاء إليه ، وهذا مايتفق فى المعنى مع ماأوردناه تحت ٢ — ب — ٤ من أن المشيب طريق الردى ، فيقول الشاعر (٣٥٥/٢/١) :

٩٤٠ وقائلةٍ تقول وقد رأتنى أُرَقِّعُ عارضَىَّ من القتير :

٩٤١ عليك الخِطْرَ عَلَّكَ أن تَدَنَّى إلى بيضٍ ترائبُهُنَّ حورِ

٩٤٢ فقلتُ لها : المشيبُ نذيرُ عُمْرى ولستُ مُسَوِّداً وَجْهَ النذيرِ

وفى هذا المعنى يقول شُميم الحلى (٥٦/٧) :

٩٤٣ أقولُ لآمرةٍ بالخضاب تحاول رَدَّ الشبابِ النضيرِ

٩٤٤ أليس المشيبُ نذيرَ الإلهِ ومن ذا يُسَوِّدُ وَجْهَ النذيرِ؟

ويقول أحمد النَّهرجورىّ (٥٦/٧) :

٩٤٥ وقائلةٍ تَخَضَّبْ فالغوانى قعودٌ عن مصاحبة الكُهولِ

٩٤٦ فقلتُ لها : المشيب رسولُ ربِّىَّ ولستُ مُسَوِّداً وَجْهَ الرسولِ !

٣ — ج : ضرورة الخضاب :

ومن الشعراء من يرى أن الخضاب ضرورة لامندوحة عنها ، فنسمع ابن عبد ربه يستحث نفسه على اللجوء سريعاً إلى الخضاب فيقول (٢٩٢/٦/١) :

٩٤٧ وَلَّتْ حميا الشبابِ عنى فَلَهْفَ نفسى على الشبابِ

٩٤٨ أصبحتُ والشيبُ قد علانى يدعو حثيثاً إلى الخضاب

أما محمود الوراق فيرى أن الشيب ضيف يحلّ عند المرء ، ومن حق الضيف أن يُقرى ، وقرى الشيب هو الخضاب ، فيقول (٣٥٥/٢/١) :

٩٤٩ للضيف أن يُقرَى ويُعرَفَ حقُّهُ   والشيبُ ضيفُكَ فاقْرِهِ بخضابِ
٩٥٠ وافى بأكْذَبِ شاهدٍ ، ولربما   وافى المشيبُ بشاهدٍ كذّابِ
٩٥١ فأزِحْ شهادته عليك بِخَضْبِهِ   تنفِ الظنونَ به عن المْرتاب
٩٥٢ فإذا دنا وقت المشيب فَخلِّهِ   والشيبُ يذهبُ فيه كُلَّ ذهاب

وإن الخضاب لضرورة مكروهة ؛ إذ يعمد إليه المرء على كره منه ، اتقاءً لعزوف الغوانى عنه ، فيقول **الشاعر** (١/٢/٣٥٥) :

٩٥٣ إن شيئاً صلاحُه بخضابٍ   لعَذابٌ مُوَكّلٌ بعذابِ
٩٥٤ فَوَحَقِّ الشبابِ لولاه والبيضُ م وأن تشمئزَّ نفسُ الكِعابِ
٩٥٥ لأرحتُ الخدَّيْن مِنْ وضَر الخِطْـ ـر وَآذَنْتُ بانقضاء الشباب

بيد أن **عبدان الأصفهانى** يرى غير هذا الرأى : فالخضاب إن كان عنده ضرورة فإن مايدعو إليه ليس هو الرغبة فى اجتذاب الغوانى ؛ وإنما الرغبة فى إخفاء المشيب الذى يطالعه فى المرآة كل يوم ينعى إليه نفسه ، وهو مايتفق مع ماسبق أن تحدثنا عنه فى ٢ – ب – ٤ عن ارتباط المشيب فى وجدان الشاعر بالموت ، يقول عبدان الأصفهانى (٧/١١٠) :

٩٥٦ فى مشيبى شماتةٌ لعِداتى   وهو ناعٍ منغِّصٌ لحياتى
٩٥٧ ويعيبُ الخضابَ قومٌ وفيه   لِيَ أنس إلى حضور وفاتى
٩٥٨ لا ومن يعلم السرائر منى   مابه رُمْتُ خلة الغانيات
٩٥٩ إنما رُمْتُ أن يُغيِّب عنى   ماتُرينيهِ كُلَّ يومٍ مِراتى
٩٦٠ وهو ناعٍ إلىَّ نفسى ومن ذا   سَرَّهُ أن يرى وُجوه النُّعاةِ ؟

٣ – د : عدم جدوى الخضاب :

ومن الشعراء من يرى أن الخضاب ماهو إلا حَلٌّ مؤقت لمشكلة المشيب ، إذ إنه سرعان ماينقشع ، ويعود المشيب إلى الظهور من جديد ، ومن ثم فإن الخضاب عديم الجدوى ، وفى ذلك يقول **على بن جبلة** وهو يمدح عبد الله بن طاهر (١٨/٨٩) :

٩٦١ راعَهُ الشيبُ إذ نَزَلْ   وكفاهُ من العَذَلْ
٩٦٢ وانقضتْ مُدَّةُ الصِّبا   وانقضى اللهو والغَزَلْ

٩٦٣ قد لعمري دَمَّلْتُهُ بخضابٍ فما اندمَلْ
٩٦٤ فابْكِ للشيبِ إذْ بدا لاعلى الربْعِ والطلَلْ

ويقول الحسن بن على رحمه الله (٣٥/١/١٤) :
٩٦٥ نُسَوِّدُ أعلاها ، وتأبى أصولُها فليت الذى يَسْوَدُّ منها هو الأَصْلُ

وفى هذا المعنى يقول محمود الوراق (١١١/٧) :
٩٦٦ ياخاضِبَ الشيبِ الذى فى كل ثالثةٍ يعودُ
٩٦٧ إن النصول إذا بدا فكأنه شيبٌ جديد
٩٦٨ بدوية رعوية مكروهها أبداً عتيد
٩٦٩ فَدعِ المشيب كما أرا دَ فلن يعود كما تُريدُ

ويقول ابن عبد ربه فى عدم جدوى الخضاب ومتحسراً أيضاً على الشباب (٣٠٢/٦/١) :
٩٧٠ بياضُ شيبٍ قد نَصَعْ رَقَّعْتُهُ فما ارتَقَعْ
٩٧١ إذا رأى البيض انقمعْ مابين يأسٍ وطمعْ
٩٧٢ للهِ أيامُ النخعْ «ياليتنى فيها جَذَعْ !
٩٧٣ أَخُبُّ فيها وأَضَعْ»

ويقول أيضا (٣٥٥/٢/١ - ٣٥٦) :
٩٧٤ أَصَمَّمَ فى الغَوايةَ أَمْ أنابا وشيبُ الرأس قد أنْضى الشبابا
٩٧٥ إذا نَصَل الخضابُ بكى عليه ويضحك كلما نَصَلَ الخضابا
٩٧٦ كأنَّ حمامةً بيضاء ظَلَّتْ تُقاتِلُ فى مفارِقِهِ غُرابا

وفى عدم جدوى الخضاب عند العجائز يقول الشاعر (٥١٢/١١٦/٢١) :
٩٧٧ عجائزٌ يطلبن شيئاً ذاهباً يخضبن بالحِناء شيبًا شائباً
٩٧٨ يقُلْنَ كنّا مرةً شبائباَ

وعن افتضاح الخضاب يقول الشاعر (٨٤/٢/١٤) :
٩٧٩ تولى الجهل وانقطع العتابْ ولاح الشيبُ وافتضح الخضابْ
٩٨٠ لقد أبغضتُ نفسى فى مشيبى فكيف تحبنى الخودُ الكعابُ ؟

ويقول آخر مشيراً إلى التناقض بين سواد الخضاب وتجاعيد الوجه ، وهو مايتفق مع قول الإسكندر الذى بدأنا به ٣ – ب (٣٥٥/٢/١) :

٩٨١ بكَرتْ تُحَسِّنُ لى سوادَ خضابى … لكأنَّ ذاك يعيدنى لشبابى !
٩٨٢ وإذا أديمُ الوجه أخلقه البلى … لم يُنتفَعْ فيه بحُسنِ خضاب
٩٨٣ ماذا ترى يُجدى عليكَ سوادُهُ … وخلاف مايرضيكَ تحت ثيابى ؟
٩٨٤ ماالشيبُ عندى والخضابُ لواصِفٍ … إلا كشمسٍ جُلِّلتْ بسحابِ
٩٨٥ تخفى قليلاً ثم يَقْشَعُها الصَّبا … فيصيرُ ماسُترتْ به لِلذهابِ

ولابن الرومى عدة أبيات فى عدم جدوى الخضاب وهو يصفه بأنه حداد على الشباب ، وقد سبق أن روينا فى ٣ – أ أبياتا لكل من أبى سهل النوبختى ويحيى بن عبد الملك بن هذيل تحمل هذا المعنى . يقول ابن الرومى (٣٨٢/٣/١٢ – ٣٨٣) :

شاب رأسى ولات حين مشيب … وعجيبُ الزمانِ غير عجيب[٢٨]
٩٨٦ ساءها أن رأت حبيباً إليها … ضاحك الرأسِ عن مفارق شيب
٩٨٧ فدعته إلى الخضاب وقالت : … إنَّ دَفْنَ المعيب غير معيب
٩٨٨ ياحليفَ الخضاب لاتخدع النفْـ … ـسَ فما أنتَ للصِّبَا بنسيب !
٩٨٩ ليس يُجدى الخضابُ شيئا من النفْـ … ـع سوى أنه حداد كئيب
٩٩٠ فاتخذه على الشبابِ حداداً … وابْكِ فيه بعبرة ونحيب

ويقول ابن الرومى أيضاً مشيراً فى البيت الأخير من الأبيات التالية إلى تناقض سواد الخضاب مع تجاعيد الوجه ، وهو ماسبق أن أشرنا إليه آنفا (٣٨٢/٣/١٢) :

٩٩١ رأيت خضاب المرء عند مشيبه … حداداً على شرخ الشبيبة يُلْبَسُ
٩٩٢ وإلاَّ فما يغزو امرؤ بخضابه … أيطمع أن يَخْفَى شباب مدلسُ ؟
٩٩٣ وكيف بأن يخفَى المشيب لخاضبٍ … وكُلُّ ثلاثٍ صُبْحُهُ يتنفَّسُ ؟
٩٩٤ وَهَبْهُ يوارى شيْبه ، أين ماؤه ؟ … وأين أديمٌ للشبيبة أملسُ ؟

ويقول أيضا (٣٨٢/٣/١٢) :

٩٩٥ إذا دام للمرء السَّواد ولم تدم … غضارته ظَنَّ السَّوادَ خضابا

(٢٨) سبق أن أوردنا هذا البيت تحت ٢ – د – ٣ برقم ٩٠٥ ، ومن ثم فلم نعطه رقما هنا .

٩٩٦ فكيف يظن الشيخُ أن خضابه يُظَنُّ سوادًا أو يخالُ شبابا ؟

ويقول (٣٨٢/٣/١٢) :

٩٩٧ يأيّها الرجل المسوِّدُ شَيْبَهُ كيما يُعَدَّ به من الشّبان

٩٩٨ أقْصِرْ فلو سَوَّدْتَ كلَّ حمامةٍ بيضاء ماعُدَّتْ من الغِرْبان

ويقول ابن الرومى أيضا (٣٨٢/٣/١٢) :

٩٩٩ خضبْتَ الشيبَ حين بَدَا لتُدْعَى فتىً حدثاً ضلالاً ماارْتجَيْتا !

١٠٠٠ فَدَعْ عنكَ الخضابَ ولا تردْهُ فأجْدى منه قولك لو وَلَيْتا !

الفصل الرابع

الاستسلام للواقع : آيات الكِبَرْ

وإذ تأخذ فى الظهور آيات الكبر – من ضعف فى الجسم ، والحناء فى الظهر ، وارتعاش فى الأطراف – يفقد الشاعر حجته فى الدفاع عن المشيب ، فيستسلم للأمر الواقع ، ويجاهر بتلك التغيرات التى تأخذ طريقها إلى جسمه وإلى نفسه على السواء ، ويجأر بالشكوى منها جميعاً .

ويبدأ الشاعر بالتأكيد على أن مايصيبه من هرم إن هو إلا سنة الحياة ، وطول العمر الذى يبلى كل جديد ، فنسمع **ساعدة بن جؤية** الشاعر الهذلى يقول فى مطلع قصيدة له تبلغ ستة وأربعين بيتاً (١٩١/٥٠) ، مع ملاحظة أن البيت ورد فى ٢٨٦/١٩ مختلفاً قليلاً :

١٠٠١ ياليت شعرى ألا منجى من الهرم ... أم هل على العيش بعد الشيب من نَدَمِ ؟

ويقول **جرير** (٣١/١/٢) :

١٠٠٢ أرىَ مَرَّ السنين أخذن منى ... كما أخذ السِّرار من الهلالِ

ويقول **عبد الملك بن مروان** (٤٧٤/٨) :

١٠٠٣ وكُلٌّ جديد يا أُمَيْمُ إلى بِلىً ... وكلٌّ امرئ يوماً يصير إلى كانا

ويقول **الشاعر** (٤٢٩/٨) :

١٠٠٤ فلئن عُمِّرتُ لقد عُمِّرت كأننى ... غصن تثنيه الرياح رطيبُ

١٠٠٥ وكذاك حقا من يعمرّ يُبله ... كرّ الزمان عليه والتقليب

١٠٠٦ حتى يعود من البلى وكأنه ... فى الكفّ أفوق ناصل معصوب

١٠٠٧ مرط القذاذ فليس فيه مصنع ... لا الريش ينفعه ولا التعقيب

ويرد **محمد بن فطيس** على من يعيب الكبر ردًّا رادعاً فيقول (٨٠٩/٩/٤) :

١٠٠٨ ثكلتك أمك هل سمعت مخلَّداً ... أم هل رأيت مُصحَّحاً لم يَسْقَم ؟

١٠٠٩ أم هل رأيت من البرية ناشئاً ... نال الذى فى مدّة لم يَهْرَمِ ؟

ويتحدث الشعراء عن آثار الكبر الظاهرة للعيان : كضعف الجسم وانحناء الظهر وارتعاش الأطراف ، كقول **الأغلب العجليّ** وهو ممن عمر طويلاً ، مشيراً فى البيت الأول بكلمة « النقض » إلى البعير أعياه السير وأهزله ، وهى مشية الرجل الهرم (١٦٩/٤/٣) :

١٠١٠ أصبحت لايحمل بعضى بعضى منقّها أروح مثل النقْضِ
١٠١١ مرُّ الليالى أسرعت فى نَقْضى طوين طولى وطوين عرضى
١٠١٢ ثم انحنين عن عظامى نحضى أقعدننى من بعد طول نهضى

ويُروى أن **معاوية** رأى هزاله وهو متعرّ فقال فى أبيات مشابهة (٥٨٦/٨) :

١٠١٣ أرى الليالى أسرعت فى نقضى أخذن بعضى وتركن بعضى
١٠١٤ حَنَيْنَ طولى وتركن عرضى أقعدننى من بعد طول النهض

ويقول **حبيب بن أحمد** الشاعر وكان قد بلغ سناً عالية (٨١٥/٩/٤) :

١٠١٥ الحمد لله على ما قضى فكل ما يقضيه فيه الرِّضا
١٠١٦ قد كنتُ ذا أَيْدٍ وذا قوةٍ فاليوم لا أستطيع أن أنهضا

ويقول **جندل** (٤٢٨/١١٢/٢١) :

١٠١٧ بل إن تَرَىْ شَمَطاً تفرّع لِمَّتى وحنى قناتى وارتقى فى مِسْحَلِى

ويقول **الشاعر** (١٦٨٩/٤/١١) :

١٠١٨ حتى أعظمى مرُّ الزمان الذى مضى وبدّلت من رأسى ثلاثة أرؤس
١٠١٩ حفافين مثل القُذَّتين وهامة يزلّ الذباب الثقف عنها فيفرس

ويروى لنا صاحب خزانة الأدب أن أبا حاتم السجستانى روى فى كتاب المعمرين ، بسنده إلى الشعبى قال : أرسل إلىّ عبد الملك بن مروان وهو شاكٍ ، فدخلت عليه فقلت : كيف أصبحت ياأمير المؤمنين ، فقال : أصبحت كما قال **ابن قميئة** الشاعر (٢١٧/٢) :

١٠٢٠ كأنى وقد جاوزتُ تسعين حِجةً خلعتُ بها عنى عذار لجام[٢٩]
١٠٢١ رمتنى بناتُ الدهر من حيث لاأرى فكيف بمن يُرْمَى وليس بِرام ؟

---

(٢٩) ورد فى العقد الفريد (٣٥٩/٢) أن الأبيات لزهير ، وقد جاء فى البيت الأول لفظ « سبعين » بدلا من « تسعين » وفى البيت الأخير لفظ « تارة » بدلا من « مرة » كما جاء صدر البيت الثالث هكذا : فلو أننى أُرْمَى بنبل رأيتها . .

١٠٢٢ فلو أنها نبلٌ ، إذن لاتقيتُها ولكننى أُرمى بغير سهام !
١٠٢٣ إذا مارآنى الناس قالوا : ألم تكنْ جليداً شديدَ البطش غير كهام ؟
١٠٢٤ فَنيتُ ولم يفن من الدهر ليلةٌ ولم يغن ما أفنيت سلك نظام
١٠٢٥ على الراحتين مرة ، وعلى العصا أنوءُ ثلاثاً بعدهنّ قيامى

ويقول **إيليا أبو ماضى** من مطولته الشعرية «الحكاية الأزلية» يصف رجلاً هرماً (٢٨٢/٤٨) :

١٠٢٦ كـأنمـا زلـزلـة تحته مما به من رعشةٍ واضطرابْ

ويرى الشعراء أن الكبر يجعل الفارس المغوار من العجز والضعف بحيث لايعدّ صالحاً لخوض غمار الحروب . ويعبر **أبو العلاء** عن هذا المعنى فى درعيتين له هما الدرعية الأولى والدرعية السابعة : ففى الدرعية الأولى يقول على لسان رجل ترك لبس الدروع لكبره (١٧٠٧/٤/١١ — ١٧١١ ، الأبيات ١ — ٧) :

١٠٢٧ رأتنى بـالمطيرة لارأتنى قريباً والمُخيلةُ قد نأتْنى
١٠٢٨ وأخلقتُ الشبابَ وكان بردى وفارقتُ الحُسامَ وكان حَيْنى
١٠٢٩ كأنى لم أردَّ الخيلَ تَرْدِى إذا استسقيتها علقاً سَقَتْنى
١٠٣٠ ألاقى الدّارعينَ بغير درعٍ وأدعو بالمُدَجَّج لاتفتْنى
١٠٣١ كأنَّ جيادَهم أسرابُ وَحْشٍ أصَرِّعُهُنَّ مِنْ رُبْدٍ وَأُتْنِ
١٠٣٢ وما أعجلتُ عن زردٍ حِذاراً ولـكنَّ المفَاضَةَ أثـقلَتنى
١٠٣٣ أكَلَّتْ منكبى سُمْرُ العوالى وَحَمْلُ السَّابِرِىِّ أكَلَّ مَتْنى

وفى مطلع الدرعية السابعة يقول على لسان رجل أسنّ وضَعُفَ عن لبس الدرع ، معبّراً عما ينتاب مثل هذا الرجل من مخاوف (١٨١٢/٤/١١) :

١٠٣٤ أرانى وضعتُ السَّرْد عنى وعزَّنى جوادى ولم يَنْهَضْ إلى الغزو أمثالى
١٠٣٥ وقيّدنى العَوْدُ البطىء وقيل لى وراءك إن الذئب منكَ على بالِ !

ومعنى هذين البيتين من قول **الربيع بن ضبع الفزارىّ** وهو من المعمرين (١٨١٣/٤/١١) :

١٠٣٦ أصبح منّى الشبابُ قد حَسَرا إن كان ولى فقد ثوى عُمرا
١٠٣٧ أصبحتُ لا أحمل السلاحَ ولا أمْـ ـلِكُ رأس البعير إن نفَرا

١٠٣٨ والذئبُ أخشاهُ إن مررتُ بِهِ وَحْدِى وأخشى الرياحَ والمطرا !

ومادام الكبر يؤدى بالجسم إلى هذه الحالة من الضعف فحرى بالمرء أن يتعقل ويستمع إلى تحذير **ابن مكى الصقلى** إذ يقول (١٢٣/٢٦) :

١٠٣٩ أيرومُ من نزل المشيبُ برأسه ما قد تعودَ قبله مِنْ فِعْلِهِ ؟

١٠٤٠ من لم يميز نقصه فى جسمه فى الأربعين فإنه فى عقله

ونجد **الجاحظ** يواجه هذا الواقع المرير ، إذ قال حين زاره المبّرد فى بؤس مرضه ، وسأله عن حاله (٢٤/٢٠) :

١٠٤١ أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنت أيام الشبابِ ؟

١٠٤٢ لقد كذبتك نفسك ليس ثوبٌ دريسٌ كالجديد من الثياب !

وليس أدل على هذه الحقيقة من أن الكبر يكون ذريعة للاعتذار عن أداء عمل يتطلب القيام به شباباً لايزال فى ميعة الصبا . وفى هذا المعنى نجد هذه الأبيات التى أرسلها **الحسين بن الضحاك** للمتوكل يعتذر عن عدم منادمته لكبر سنه (٤٧٤/٢/٦ ، ٢٢٥/٧/٥ – ٢٢٦) :

١٠٤٣ أما فى الثمانين وفّيتُها عَذيرٌ وإن أنا لم أعتذرْ

١٠٤٤ فكيف وقد جُزتها صاعِداً مع الصاعدين بتسع أُخَرْ

١٠٤٥ وقد رفع اللهُ أقلامه عن ابن ثمانين دون البشر

١٠٤٦ سِوى من أصَرَّ على فتنةٍ وألْحد فى دينه أو كَفَرْ

١٠٤٧ وإنى لمن أسراء الإلـ ـه فى الأرض نُصب صروفِ القَدَرْ

١٠٤٨ فإن يَقْضِ لى عملاً صالحاً أثابَ وإن يَقْضِ شرًّا غَفَرْ

١٠٤٩ فلا تلح فى كبر هَدَّنى فلا ذنب لى أن بلغتُ الكِبَرْ

١٠٥٠ فقد بسط الله لى عُذره فمن ذا يلومُ إذا ماعَذَرْ ؟

وإن الكبر ليترك أثره فى مشية المرء ، فتقصر خطاه وتتعثر . ونجد للشعراء وصفاً لتلك المشية فى أكثر من موضع فقد سبق أن روينا فى وصف المشية البيت رقم ١٠١٠ وقال **أعرابى** (٣٥٨/٢/١) :

١٠٥١ أشكو إليك وجعاً بركبتى وهَدَجَاناً لم يكن فى مشيتى

١٠٥٢ كهدجـان الـرَّألِ خلـف الهَيْقـةِ

ويقول عدىّ بن زيد (٣٥٦/٣/٥) :

١٠٥٣ حنتنى حانياتُ الدهر حتى كأنّىَ خاتِلٌ يدنو لِصَيْدِ
١٠٥٤ قريبُ الخطو يحسب مَنْ يرانى ولستُ مقيداً أنى بقَيْدِ !

ومن ثم فإن الكبر يجعل السير مسافات طويلة أمراً شاقا ، وها نحن أولاء نسمع **عبد المحسن الصورى** يرد على أبيات بعث بها إليه الشاعر أحمد بن سليمان الفجرى يدعوه لزيارته وعبور البحر أو قطع الفيافى ، فيقول (٤٨٩/٦/٤) :

١٠٥٥ جزَاكَ الله عن ذا النُّصْح خيراً ولكنْ جاء فى الزمنِ الأخيرِ
١٠٥٦ وقد حَدَّتْ لى السبعون حداً نهى عما أمرتَ من المسير

ويؤدى الكبر بالمرء إلى أن يتوكأ فى سيره على العصا من ضعف ووهن ، وبذلك يكون موضع شماتة أعدائه ؛ كما يسأمه أهله . ويعبر **عروة بن الورد** عن ذلك بقوله (٨٢/٣/٥) :

١٠٥٧ أليس ورائى أن أدبّ على العصا فيشمت أعدائى ويسأمُنى أهلى[٣٠]
١٠٥٨ رهينة قعر البيت كل عشيةٍ يطيف بِىَ الولدانُ أهْدَجَ كالرَّألِ !

ونجد فى عجز البيت الثانى وصفا للمشية وهو الهدجان الذى جاء ذكره فى البيت رقم ١٠٥٢ . ونجد أن الشاعر هنا يشبه نفسه بالرأل ، وهو ولد النعام أو حوليه ، لأن مشيه يكون ارتعاشاً .

وجدير بالذكر أن لزوم العصا قد جاء فى الشعر كآية من آيات العجز نتيجة الكبر ، والرجل يتمنى إذا لم تكن له قوة ، وهو يجد مسّ العجز ، فيقول : لوكان فى العصا سير ! وإذا لم يجعل المسافر فى عصاه سيراً سقطت من يده إذا نعس ، والشيخ يتوكأ على العصا فتعاونه على السير وتكون له دعامة . ونروى هنا بيتين **لحرثان ذى الإصبع** ، إذ يقول لأمامة وقد رأته نهض فسقط وتوكأ على عصاً فبكت (٣٨٢/٢/٦) :

١٠٥٩ جزعت أمامة أن مشيت على العصا وتذكَّرتْ إذ نحنُ م الفتيان

إلى أن يقول :

١٠٦٠ لاتَعْجَبَنْ أُمَامُ إنْ حَدَثٌ عَرَا فالدهرُ غيّرنا مع الأَزْمَانِ

---

(٣٠) وردت فى البيان والتبيين/٢٢٩ لفظة « فيأمن » بدلا من « فيشمت » .

ومع الكبر وضعف الجسم وانحناء الظهر ، ولزوم العصا ، تفد الأمراض والعلل ، فيقول **جرير** (٣٥٨/٢/١) :

١٠٦١ تحيا العظامُ الراجفات من البلى ... مإن لداء الركبتين دواءُ

ويقول **الشاعر** (٣٥٨/٢/١) :

١٠٦٢ وللكبير دآيـات أَرْبَعُ ... الركبتان والنَّسا والأَخْدَعُ

وقال **أبو ضبة** فى رجله (٤٢٦/٨) :

١٠٦٣ وقد جعلتُ إذا مانمتُ أَوجَعَنى ... ظهرى وقُمتُ قيامَ الشارف الظهرى

١٠٦٤ وكنتُ أمشى على رجلين معتدِلاً ... فصرتُ أمشى على رِجلٍ من الشَّجر

وقال **رجل من بنى عجل** (٤٢٦/٨) :

١٠٦٥ وشى بى واشٍ عند ليلى سفاهةً ... فقالت له ليلى مقالة ذى عقلِ

١٠٦٦ وخبّرها أنى عرجتُ فلم تكن ... كورهاء تجتر الملامة للبعل

١٠٦٧ ومابى من عيب الفتى غير أننى ... جعلتُ العصا رِجلاً أقيمُ بها رِجْلى

وفى هذا المعنى يقول **أعرابى** من بنى تميم (٤٢٦/٨) :

١٠٦٨ ومابى من عيب الفتى غير أننى ... ألفت قناتى حين أوجعنى ظهرى

ويقول السيد **عبد الرحيم العباسى** (٤٥/٢/١٤) :

١٠٦٩ أرعشنى الدهر أىَّ رَعْشٍ ... وكنتُ ذو قوةٍ وبَطْشِ

١٠٧٠ قد كنتُ أمشى ولستُ أعْيا ... فصرتُ أعْيا ولستُ أمشى !

ومع الكبر يضعف السمع والبصر : أما عن ضعف السمع فيقول **عوف بن محلم** لعبد الله بن طاهر يشكو ضعف سمعه من الكبر (٤٥/٢/١٤) :

١٠٧١ إن الثمـانين – وبُلِّغْتَـها – ... قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ويقول **الغزى** (١٢٧/٧/٤٥) :

١٠٧٢ طولُ حياةٍ مالها طائِلُ ... نَغَّصَ عندى كُلَّ مايُشْتَهى

١٠٧٣ أصبحتُ مثل الطفل فى ضعفهِ ... تشـابَهَ المبـدأُ والمنتهـى

١٠٧٤ فلا تلُمْ سمعى إذا خاننى ... «إن الثمانين وبـلّـغتهـا»

ويلاحظ أن المراد من التضمين هنا تمام البيت « قد أحوجت سمعي إلى ترجمان » وإنما تركه لأن أول البيت يدل على اشتهاره ، وهو البيت الذى أوردناه أعلاه تحت رقم ١٠٧١

وأما عن ضعف البصر فقد قال **بعض المحدثين** (٣٦١/٢/١) :

١٠٧٥ يحيِّفُنى عضواً فعضوًا فلم يَدَعْ صحيحاً سوى اسمى وَحْدَهُ ولسانى
١٠٧٦ ولو كانت الأسماءُ يدخُلها البلى إذَنْ بلىَ اسمى لامتداد زمانى
١٠٧٧ ومالى لا أبْلى لسبعين حجةً وسَبْع أَتَتْ من دونها سنتانِ
١٠٧٨ إذا عَنَّ لى شىء تَخَيَّلَ دونَهُ شبيهُ ضبابٍ أو شبيهُ دُخانِ

ويقول **حميد بن ثور الهلالى** (٣٦١/٢/١) :

١٠٧٩ أرى بصرى قد رابنى بعد صحةٍ وحسبُك داءً أن تصحَّ وتسلما

وقد يضعف السمع والبصر معاً ، كقول **ابن أبى فنن** يصف الكبر (٣٦٠/٢/١) :

١٠٨٠ من عاش أخلقتِ الأيام جِدَّته وخانه ثِقتاهُ : السمع والبصرُ

ومن أحسن ماقيل فى وصف مايفعله المشيب والكبر بالمرء من ضعف فى الجسم كله ، وضعف فى السمع والبصر ، قول **محمود سامى البارودى** (١٥/٣١) :

١٠٨١ أخلق الشيبُ جِدَّتى وكسانى خلْعَةً مِنه رثَّةَ الجلبابِ
١٠٨٢ ولوى شَعَر حاجبَىَّ على عيْـ ـنَىَّ حتى أطَلَّ كالهدّاب
١٠٨٣ لا أرى الشىء حين يَسْنَحُ إلاَّ كخيال كأننى فى ضباب
١٠٨٤ وإذا مادُعيت صِرتُ كأنى أسمعُ الصوتَ من وراء حجابِ
١٠٨٥ كلما رُمْتُ نهضةً أقعدتنى نـيـةٌ لاتـقـلُّـهـا أعصابى

ولهذا كله اعتبر الكبر عيباً ؛ كما اعتبر المشيب عيباً ، فيقول **الشاعر** (٣٠٩/١/٥٥) :

١٠٨٦ خُبِّرْتُ زوَّارَها قالوا وماعلموا عيبٌ وشيبٌ وشيخٌ ماله نَعَمُ

ولهذا كله أيضا كان الكبر فى بعض الأحيان معيرة يُعيِّرهُ المرءُ ، كقول **أسماء** (٤٧٤/٨) :

١٠٨٧ عَيَّرتِنى خلقاً أبليت جدَّته وهل رأيت جديداً لم يَعُدْ خلقا ؟

وقول **الأخطل** لنابغة بنى جعدة يعيِّره الكبَر ، وإنما هو شاب حديث السن (٢٧٨/١/١٤) :

١٠٨٨ لقد جازى أبو ليلى بقَحم ومُنتكثٍ عن التقريب وانِ
١٠٨٩ إذا هبط الخَبار كبا لِفيه وخرَّ على الجحافل والجِرانِ

وينفى **النابغة الجعدى** تهمة الكبر عن نفسه فيقول (٢٣٣/٢٩) :

١٠٩٠ ألا زعمت بنو سعدٍ بأنى –ألا كذبوا– كبير السنِّ فانِ !

ومما يصاحب الكبر الملل والسأم من طول العمر ومدّ الزمان ، وفى هذا يقول **أبو العلاء المعرى** (١٧٠٢/٤/١١ — ١٧٠٣) :

١٠٩١ مُدَّ الزمانُ وأشْوتنى حوادثُهُ حتى مللتُ وذَمَّتْ نفسىَ العُمُرَا
١٠٩٢ وحُلْتُ كُلّى سوى شيبٍ تجاوزنى ولم يُبيِّض على طول المدى الشَّعَرا

ويقول **أبو العلاء** أيضاً فى مطلع قصيدة يجيب فيها شاعراً مدحه يعرف بأبى الخطاب الجبلىّ (٧١٥/٢/١١– ٧١٦) :

١٠٩٣ أشفقتُ من عبء البقاء وعابه ومللتُ مِنْ أرْىِ الزمانِ وصابِهِ
١٠٩٤ ووجدتُ أحداث الليالى أولَعتْ بأخى النّدَى تثنيه عن آرابِهِ

ومثل هذا قول **زهير** (٧١٦/٢/١١) :

١٠٩٥ سئمتُ تكاليفَ الحياة ومن يَعِشْ ثمانين حَوْلاً لا أبالَكَ يَسْأمِ

غير أن الملل قد لايكون مللاً من الحياة ؛ وإنما يكون مللاً من الضعف الذى يأتى به الكبر : كقول **أبى الطيب المتنبى** (٣٣٩/٤/٤) :

١٠٩٦ وإذا الشيخُ قال أفٍّ فماملَّ م حياةً وإنما الضعفَ مَلاَّ
١٠٩٧ آلة العيش صحة وشباب فإذا وَلّيا عن المرء وَلَّى

وعن الملل من الحياة ومما حَلّ من آيات الكبر يحدثنا الشاعر السعودى المعاصر **محمد حسن الفقى** . (٨/٤٢١٥/٥٣) من قصيدة له من أربعة وثلاثين بيتاً بعنوان «رفيقة اللهو» فيقول :

١٠٩٨ أرفيقتى فى اللهو قد جزعت نفسى ورنَّق صفوها المللُ
١٠٩٩ ماعدت مفتوناً بمن قدموا أو عدتُ مشتاقاً لمن رحلوا
١١٠٠ إن كان عندك للهوى أملٌ يهفو فما عندى له أملُ !
١١٠١ ذهب الشباب فما يخالجنى بَعْد الشباب هوى ولاعَذلُ

١١٠٢ ماذا يرجّى من كهولتِه ومن الهوى والحُسْنِ . . مكتَهلُ ؟
١١٠٣ أيكون لى بشبيبتى خطلٌ ويكون لى بكهولتى خطل ؟
١١٠٤ ولئن صبوتُ لسوف يعصمنى عجزٌ ، وسوف يصدّنى كسل

ويقول :

١١٠٥ أرفيقتى فى اللهو معذرةً منى إليك فإننى طَلَلُ
١١٠٦ قد كدتُ أذهب فى الورى مثلاً لو كان ينفع عندهم مَثَل !

ويقول :

١١٠٧ فستجنّبى سُبُلى فَرُبّتمَا ضاقت علىّ بمفردى السُّبُلُ

ومن مساوى الكبر أنه يذهب بالمسرة وطيب العيش : كقول **الشاعر** (٣٥٨/٢/١) :

١١٠٨ إذا عاش الفتى سبعين عاماً فقد ذهب المَسَرَّةُ والغَنَاءُ

وقول **ربيع بن ضبع الفزارى** فى هذا المعنى (٣٣٢/١/٥٥) :

١١٠٩ إذا عاش الفتى المائتين عاماً فقد ذَهَبَ اللَّذاذَةُ والفتاءُ

وقول **أبى العتاهية** (٢١٤/٢٩) :

١١١٠ أيا من يُؤَمِّلُ طولَ الحياة وطولُ الحياةِ عليه خَطَرْ
١١١١ إذا ماكبرتَ وبانَ الشبابُ فلا خير فى العيش بعد الكِبَرْ

وإن هذه المعاناة التى تصحب الكبر لتدفع بالشاعر إلى تمنى الموت ، فنسمع **زهير بن خباب** أحد المعمرين الذى يقال : إنه عمرّ مائة وخمسين سنة – يذم الكبر وطول الحياة فيقول (١٢٨/٣/٥) :

١١١٢ الموت خيرٌ للفتى فَلْيَهْلكَنْ وبِهِ بقيَّهْ
١١١٣ مِنْ أن يُرى الشيخ البجا لَ إذا تَهادى بالعشيَّهْ

ويرى الشعراء أن من مساوى الكبر تعذر التعليم أو التأديب فيه ، فيقول **المخبل السعدى** (٢٦٠/٢/١ ، ١٩٧/٣/٣) ، ويقال إن البيت لغيره :

١١١٤ إذا المرء أعيتْهُ المروءة ناشئاً فمطلبُها كهْلاً عليه عسيرُ

وهم يرون رأى الحكماء حين يقولون : ماأشد خطام الكبير ، وأعسر رياضة الهَرِم ! فيقول **صالح ابن عبد القدوس** (١/٢/٢٦٠ ، ٢٥٣/١٣) :

١١١٥ وإن من أدّبته فى الصبا   كالعود يُسقى الماء فى غَرْسِهِ
١١١٦ حتى تراهُ مورِقاً ناضِراً   بَعْدَ الذى أبصرت من يُبْسِه
١١١٧ والشيخ لايتركُ أخلاقه   حتى يوارى فى ثرى رَمْسه
١١١٨ إذا ارعوى عاد له جهله   كذى الضنى عاد إلى نُكْسه[٣١]
١١١٩ ماتبلغ الأعداء من جاهلٍ   مايبلغ الجاهل من نفسه !

وقال **ابن دريد** (١٠٤/٣) :

١١٢٠ والشيخ إن قوّمته من زيغهِ   لم يُقمِ التثقيفُ فيه ماالتوى !

وقالت **إحدى نساء العرب** تشكو ابنها (٢٠٣/٢٩) :

١١٢١ أنشا يمزق أثوابى يؤدبنى   أبَعْدَ شيبى يبغى عِندى الأدبا !

وقال **الشاعر** (٢٠٦/٤١) :

١١٢٢ قد ينفع الأدب الأحداثَ فى صغرٍ   وليس ينفع عند الشيبة الأدبُ

وإذا كان المشيب يرتبط فى وجدان الشاعر والموتُ ، (انظر ٢ — ب — ٤) فإن الكبر يدنيه منه ، فيقول **الغزالى** (١/٢/٣٦١) :

١١٢٣ أصبحت والله محموداً على أمَدٍ   من الحياة قصير غير مُمْتَدِّ
١١٢٤ حتى بقيتُ بحمد الله فى خلفٍ   كأننى بينهم من وَحْشةٍ وَحْدِى
١١٢٥ وما أفارق يوما من أفارقُهُ   إلاّ حسبتُ فراق آخر العهدِ

ويقول **أبو العتاهية** (٤١/ ١٠٨) :

١١٢٦ ابن ذى الابن كلما زاد منه   مشرع زاد فى فناء أبيه
١١٢٧ ما بقاء الأب الملح عليه   بدبيب البلى شباب بنيه

وفى معناه ماحكى عن **زرّ بن حبيش** أنه قال وقد حضرته الوفاة وكان قد عاش مائة وعشرين سنة (١٠٨/٤١) :

---

(٣١) جاء فى الوسيط /٢٥٣ « عاد إلى جهله » .

١١٢٨ إذا الرجال ولدت أولادها وارتعشت من كبر أجسادها
١١٢٩ وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها !

ونجد مزاوجة بين الموت والهرم فى قول الشاعر (١٥٦/١/٢) :

١١٣٠ لاطيب للعيش مادامت منغصةً لذاته بادِّكارِ الموت والهرم

وفى قول التميمى (٤٨٣/٨) :

١١٣١ إذا كانت السبعون سنك لم يكن لدائك إلا أن تموت طبيبُ
١١٣٢ وإن امرأً قد سار سبعين حِجةً إلى منهل من ورده لقريب
١١٣٣ إذا مامضى القرنُ الذى كنت فيهمُ وخلفت فى قرن فأنت غريبُ

وفى قول أبى عمران موسى بن عمران المارتلى (١٣٧/٥٦) :

١١٣٤ أمن بعد سبعين أرجو البقاء وسبع أتت بعدها تعجل

وثمة أبيات تجمع بين هذا كله مما يصيب الشعر والجسم ، وقصور الخطو وانحناء الظهر ، ثم توقع الموت فى النهاية ؛ إذ يقول الشاعر (١/٢/٣٦١ - ٣٦٢) :

١١٣٥ يا من لشيخ قد تخدَّد لحمه أفنى ثلاث عمائمٍ ألوانا
١١٣٦ سوداء حالكة وبُرْدُ مَفوفٍ وأجَدَّ لوناً بعد ذاك هجانا
١١٣٧ قصر الليالى خطوه فتدانى وحَنَيْنَ قائم صُلبه فتحانى
١١٣٨ صحب الزمان على اختلاف فنونِهِ فأراه منه شدة وليانا
١١٣٩ والموتُ يأتى بعد ذلك كلِّهِ وكأنما يعنى بذاك سوانا

ويلاحظ أنه قد وردت فى عيون الأخبار (٣٢٥/٢) أبيات مشابهة وإن اختلفت فى بعض ألفاظها وفى ترتيبها .

والكبر إما أن يؤدى بالمرء إلى الارعواء ، أو إلى الضلال ، وليس كضلال الكهولة ضلال يقول حافظ جميل الشاعر العراقى ، يصف عهد الكهولة بأنه مأتم (٨١/٣١) :

١١٤٠ خلْتُ الشبابَ طريق كل ضَلالةٍ عمياءَ تُنْذِرُ بالمصير المظلم
١١٤١ حتى إذا استخلفتُه بمضَللٍ أقوى على التضليل منه وأعظم
١١٤٢ باركتُ شيطانَ الصِّبا وترَحَّمَتْ نفسى على مترفقٍ مُترحِّم
١١٤٣ فكأننى واريتُ عهدَ شبيبتى ليظَلَّ عهد كهولتى فى مأتم

بيد أن من الشعراء من يدافع عن الكبر ويقرنه بالحكمة وعدم الوقوع فريسة للخديعة كقول **سحيم ابن وثيل الرياحي** من قصيدة مشهورة له (٣٣٢/٣/١٠) :

١١٤٤ وماذا يدَّرى الشعراء منى ... وقد جاوزتُ حَدَّ الأربعين؟[٣٢]

وهؤلاء يرون أن الضعف والكبر لايحولان بين المرء وبين الطموح والآمال العراض ؛ فالشباب شباب القلب ، وفى داخل كل رجل كبير قلب شاب ، ومن ثم نسمع **البهاء زهير** يقول وقد تقدمت به السن (٨٧/٢/١٦) :

١١٤٥ قالوا كبرت عن الصِّبا ... وقطعتَ تلك الناحيةْ
١١٤٦ فدع الصبا لرجاله ... واخلع ثياب العاريهْ
١١٤٧ ونَعَمْ كبرتُ وإنما ... تلك الشمائلُ باقيهْ
١١٤٨ وتفوح من عطفيَّ أنـ ... ـفاسُ الشباب كما هيهْ
١١٤٩ ويميلُ بى نحو الصِّبا ... قلب رقيقُ الحاشيَه
١١٥٠ فيه من الطرب القديـ ... ـم بقيةٌ فى الزاويهْ

ويقول **الشاعر** (٣٢٠/٢/١) :

١١٥١ ياهِنْدُ هل لكِ فى شيخٍ فتًى أبداً؟ ... وقد يكون شباب غير فتيانِ[٣٣]

ويقول آخر (٣٢٠/٢/١) :

١١٥٢ وفتىً وَهْوَ قد أناف على الخمـ ... ـسين يلقاكَ فى ثيابِ غُلامِ !

ويقول **أبو الطيب** فى هذا المعنى أيضا (١٥٩٢/٤/١١) :

١١٥٣ وشيخ فى الشباب وليس شيخاً ... يُسمَّى كُلُّ من بَلَغَ المشيبا

ويقول **العقاد** (١٠٤/٢٥) :

١١٥٤ قل لابن تسعين لاتحزن فذا رجلٌ ... دون الثلاثين قد سَاوَاكَ فى الهرم !

وإن هذا التناقض بين التقدم فى السن ومايصحبه من آيات الكبر ، وبين ما يجيش به القلب الشابّ من طموح وآمال لَيُحدث صراعاً فى نفس الشاعر ، فنراه فى حيرة وتعجب من هذا

---

(٣٢) ورد فى مجالس ثعلب ١ /٢١٣ لفظ « يبتغى » بدلا من « يدّرى » ولفظ « رأس » بدلا من « حدّ » .
(٣٣) ورد هذا البيت فى شروح سقط الزند ٤ /١٥٩١ مبتدئا بكلمة « ياعز » بدلا من « ياهند » .

التناقض فى حياته ؛ وهو مايعبر عنه الشاعر السعودى المعاصر علي زين العابدين فى قصيدة طويلة تبلغ ثلاثة وأربعين بيتاً بعنوان «طموح وتطامن» يقول فيها (٥/٤٢٨٥/٥٤ ، الأبيات ٣ — ١٣) :

١١٥٥ ولكنى هرمتُ ولآنَ عظمى   فهل فى الطوق تحطيمُ الصِّعابِ ؟
١١٥٦ أرى للنفسِ آمالاً عِراضاً   وللقلب الفتىَ مُنى الشباب
١١٥٧ وللعزم القوىّ شواظ نارٍ   تَوقّدُ فى اشتعالٍ والتهابِ
١١٥٨ كأنى لم أكن إلا فتيًّا   يموج فؤادُه مَوْجَ العباب
١١٥٩ فياهذا التناقضُ فى حياتى !   شباب القلب مرضوض الإهاب
١١٦٠ رأيت العمر لم يعْجزْ فؤادى   ولم يُخْمِدْ طموحى عن طِلابى
١١٦١ ترى ما السِّرُّ فى أعماقِ نفسى ؟   وهل مازلتُ أرفُل فى شبابى
١١٦٢ أو الآمالُ فى الدنيا تمادَتْ   فشدَّتْنى لأوهامٍ كِذاب ؟
١١٦٣ أرانى غير معترفٍ بضعفى   ولستُ بهائبٍ لُجَجَ العُباب
١١٦٤ كأنى لم أجُزْ خمسين عاماً   وأنى فى العزيمة كالشِّهابِ
١١٦٥ عجيبٌ مايجيشُ به فؤادى   من الآمال فى دُنيا التباب !

وعلى النقيض من هذا نسمع إيليا أبو ماضى فى مطولته الشعرية «الحكاية الأزلية» يقول على لسان شيخ «مشتعل اللمّة بالى الإهاب» إنه يطلب من خالقه أن يأخذ حكمته ويردّ عليه الشباب ، فهو يريد المُنى أمامه لاوراءه (٢٨٢/٤٨) :

١١٦٦ مُرْ تقف الأيام عن سيرها   فإنها تركض مثل السَّحابْ
١١٦٧ وضع أمامى لاورائى المنى   وطوِّل الدرب وزِدْ فى الصِّعابْ
١١٦٨ مالذّى بالماء أرْوَى به   بل لذّتى فى العَدْوِ خَلْفَ السَّراب !

ويتناول الشعراء بالوصف مايعترى المسنّ من تغيرات نفسية ، ومايحدث من تغيرات فى سلوك الناس نحوه ، ونظرتهم إليه ، ومعاملتهم له : فمن حيث التغيرات النفسية يتحدث الشعراء عن لين القناة التى كانت لاتلين ، وعن تخوّف الرجل المسنّ من الناس ، وكثرة حديثه عن الماضى ، وفقدانه الاهتمام بما يدور حوله ، وشعوره بأنه أصبح شخصاً عديم الجدوى :

عن لين قناة المسنّ يقول الشاعر (٣٦١/٢/١) :

١١٦٩ كانت قناتى لاتلينُ لغامزٍ   فألانها الإصباحُ والإمساءُ !
١١٧٠ ودعوتُ ربِّى بالسلامة جاهدًا   ليُصحَّنى فإذا السلامة داءُ !

وعن رهبة الناس يقول **طرفة** (٢١/١٠٨/٢٧٩) :
١١٧١ لاكبير دالِفٌ من هَرَمٍ   أرهبُ الناس ولاكَلٌّ الظُّفُر

وعن كثرة حديث المسنين عن الماضى يقول **لبيد** (١/٢/٣٦٠) :
١١٧٢ أليس ورائى إن تراخت منيتى   لزومُ العصا تحنى عليها الأصابعُ
١١٧٣ أخبِّرُ أخبار القرون التى مضت   أدِبُّ كأنى كلما قمتُ راكعُ
فأصبحتُ مثل السيف أخلق جَفْنَهُ   تقادم عهد الجفن والنصْلُ قاطِعُ

وقال **أعرابىّ** فى امرأة (١/٢/٣٥٨) :
١١٧٤ يا بكر حواء مـــن الأولادِ   وأقدم العالم فى الميـــلاد !
١١٧٥ عمْرِكِ ممدودٌ إلى التَّنـــادِ   فحدِّثينا بحديث عـــادٍ !
١١٧٦ ومبتدا فرعون ذى الأوتـادِ   وكيف جاء السيلُ بالأطـوادِ ؟

ويحدثنا **حسان بن الغدير** عما يخالج المسنّ من الشعور بعدم الجدوى ، وبأنه أصبح لايأتى بخبر ولا يحمل خبراً فيقول (٨/٥٠٢ - ٥٠٣) ، ويلاحظ أن لفظ «واصل» جاء فى ص ٢٦٦ بدلا من واسط) :
١١٧٧ قالت أمامة يوم برقة واسطٍ   يابن الغدير لقد جعلت تغيَّرُ
١١٧٨ أصبحتَ بعد زمانِك الماضى الذى   ذهبت شبيبته وغصنك أخضرُ
١١٧٩ شيخاً دعامتك العصا ومشيَّعاً   لاتبتغى خبراً ولاتُستَخْبَرُ

ويقول **الشاعر** (٩/٣٢٥ ، ٢٣/٤١٦) :
١١٨٠ فأصبحتُ كُنْتِيًّا وأصبحتُ عاجِنا   وشرُّ خِصال المرء كنتُ وعاجِنُ[٣٤]

ويقول **قطرى بن الفجاءة** (٥٧/٣٩) :
١١٨١ ومن لايعتبط يسأم ويهرمْ   وتسلمه المنون إلى انقطاع
١١٨٢ وما للمرء خيرٌ فى حياة   إذا ماعُدَّ من سَقَطِ المتاعِ !

---

(٣٤) قال ابن الأعرابى : يقال رجل «كنتى» إذا قال : كنت شابا ، كنت شجاعا ، كنت قويا ، أما لفظ «عجن» فيقال «عجن الرجل إذا نهض معتمدا على الأرض من الكبر».

ويقول ابن العباس[٣٥] (٤٥١/٢/٥٥) :

١١٨٣ لاخير فى الشيخ إذا ماجلخَّا وسال غَرْبُ عينه ولخَّا
١١٨٤ وانثنت الرجْلُ فكانت فخَّا وكان وصلُ الغانيات أخَّا[٣٦]

وأما من حيث فقدان المسنّ الاهتمام بما يجرى حوله فمن أمثلته ترك التعجب من العجب ، فما من شيء أصبح يثير عجبه ، وفى ذلك يقول حسان بن الغدير (٥٠٣/٨) :

١١٨٥ وهلك الفتى ألاّ يراح إلى النَّدى وألاّ يرى شيئاً عجيباً فيعجبا
١١٨٦ ومن يبتغى منى الظلامة يلقنى إذا مارآنى أصلع الرأس أشيبا

ويلاحظ أنه قد ورد هذا المعنى فى البيت الثانى من قصيدة الشاعر السعودى المعاصر محمد حسن الفقى التى سبق أن رويناها فى بداية هذا الفصل تحت رقم ١٠٩٩ وفيه يقول :

ما عدتُ مفتوناً بمن قدموا أوعدتُ مشتاقاً لمن رحلوا

ونجد معنى جديدا فى أبيات لأحمد شوقى من مسرحية «كليو باترة» عما يصيب المسنّ من تغيرات نفسية ، وهذا المعنى يتصل بمشاعر الحسد والغيرة التى يحس بها الشيوخ نحو الشباب ! فى هذه المسرحية نسمع «زينون» يحدث نفسه قائلاً (١٨١/٢٢) :

١١٨٧ مالى جُننتُ فصرتُ أتهمُ م الشبابَ وأضْطهدْ ؟
١١٨٨ لم ألْقَ رأساً فاحماً إلا حملتُ له الحسدْ !
١١٨٩ ووجدتُ لاعجَ غَيْرةٍ بين الجوانح تتَّقِدْ !

أما من حيث تغير سلوك الناس نحو المسنّ ، وتغيّر معاملتهم له ، وما يبعثه هذا كله فى نفسه من مرارة وألم - فنجد خير مثال له هذه الأبيات لعبد الله بن عبد الرحمن القاسم الدينورى (٣١٣/٢/١٥) :

١١٩٠ عشت من الدهر ماكفانى ومَرَّ ماَمرَّ من زمانى
١١٩١ وقد حنتنى وقوَّستنى تسعٌ وتسعون واثنتان
١١٩٢ وقد سئمتُ الحياة مما ألقى من الذل والهوان
١١٩٣ ومن أخٍ كنت أرتجيه لحادث الدهر قد قلانى

(٣٥) نقل البغدادى نسبة الرجز إلى العجاج وليس فى ديوانه .
(٣٦) «أخ» كقولك أفٍ وتفٍ .

١١٩٤ ومِنْ غلامٍ إذا يُنادى تصامم النذلُ وهو دانٍ
١١٩٥ مدمـــدمٍ لا أراهُ إلاَّ مقطّب الوجـه مـارآنى !

وقد وجدنا أبياتاً للشاعر الهذلى **ساعدة بن جؤية** تتضمن معظم ماأوردناه من آيات الكبر ، ويلاحظ أن مطلع الأبيات سبق أن أوردناه تحت رقم ١٠٠١ ولذلك لم نعطه هنا رقماً . يقول ساعدة (١٩١/٥٠) :

١٠٠١ ياليت شعرى ألا منجّى من الهرم أم هل على العيش بعد الشيب من نَدَمِ
١١٩٦ والشيب داءٌ نجيسٌ لادواء له للمرء كان صحيحاً صائبَ القُحم
١١٩٧ وَسْنانُ ليس بقاضٍ نومةً أبداً لولا غداة يسير الناسُ لم يقُمِ
١١٩٨ فى منكبيه وفى الأصلاب واهنةٌ وفى مفاصِلِهِ غمزٌ من العَسَمِ
١١٩٩ إن تأته فى نهارِ الصيف لاتره إلاَّ يُجَمِّعُ مايَصْلى من الحُجم
١٢٠٠ حتى يُقالَ وراءَ البيت منتبذا قُم لا أبالَكَ سار الناسُ فاحترم
١٢٠١ فقام تُرعِد كفّاهُ بمحْجنِهِ قد عاد رهْباً رذيّا طائِشَ القدم[٣٧]
١٢٠٢ تاللهِ يبقى على الأيام ذوحيد أدفى صَلود من الأوعال ذوخَدَمِ

ويحمل **المستوغر بن ربيعة** آيات الكبر فى أبيات قالها حين دخل على معاوية بن أبى سفيان[٣٨] وهو مُسِنٌ معمر وسأله : كيف تجدك يامستوغر (٣٥٧/٢/١ – ٣٥٨) :

١٢٠٣ سلنى أنبئك بآيات الكبر نوم العشاء وسعالٌ بالسَّحَرْ
١٢٠٤ وقِلَّةُ النوم إذا الليل اعتكر وقلة الطُّعْمِ إذا الزاد حضر
١٢٠٥ وحذراً ازداده إلى حذر والناس يبلون كما يبلى الشَّجرْ

وثمة أبيات تتضمن إشارة إلى آيات الكبر دون ذكر أيٍ منها ، كقول **النَّمر بن تولب** (٣٢١/٢/٤٩) :

١٢٠٦ يود الفتى طول السلامة والغنى فكيف تُرى طول السلامة يَفعلُ ؟

---

(٣٧) ورد هذا البيت فى شعر الهذليين / ٢٨٦ ، على النحو التالى :

تـراه تـرعـد كـفـاه بمـحـجـنـةٍ وإن خطا فهو نضوٌ طائش القدم

(٣٨) جاء فى البيان والتبيين /٢٠٧ وكذلك فى عيون الأخبار أنه الهيثم بن الأسود بن العريان وقد دخل على عبد الملك ابن مروان ، كما ورد البيت الأول مبتدئاً بلفظ « اسمع » بدلا من « سلنى » .

وقول **الكميت** (٣٢١/٢/٤٩) :

١٢٠٧ لا تغبط المرء أن يُقالَ لــه   امسى فلانٌ لسِنِّه حَكَمــاً
١٢٠٨ إن سَرَّهُ طولُ عمره فلقد   أضحى على الوجه طولُ ماسلما

لهذا كله كان طول العمر أمراً مذموماً ، فيقول **محمد بن مناذر** فى رجل من المعمرين (٣٥٨/٢/١ – ٣٥٩) :

١٢٠٩ إنَّ مُعاذَ بن مسلمٍ رَجُلٌ   قد ضَجَّ مِنْ طولِ عُمْرِهِ الأبَدُ
١٢١٠ شاب رأس الزمان واكتهل الدهر   م وأثوابُ عُــمْــره جُــدُدُ
١٢١١ يانَسْرَ لقمان كم تعيش وكم   تسحبُ ذيل الحياة يالبدُ !
١٢١٢ قد أصبحتْ دار آدمٍ خربت   وأنت فيها كأنك الوتدُ
١٢١٣ تسأل غربانها إذا حجلتْ   كيف يكونُ الصُداعُ والرَّمَدُ ؟

البَابُ الثالث

تلخيص

تلخيص

وبعد فإن ماعرضناه فى هذه العجالة عما جاء عن الشباب والمشيب فى الشعر العربى مما يعكس نظرة الشعراء إلى قضية الزمن — هو قليل من كثير مما يزخر به التراث العربى . ولعله من المفيد أن نقدم هنا مجموعة من أبيات جامعة ، لعدد من الشعراء ، فكل مجموعة منها تشتمل على كل أو جلّ المعانى التى صنفناها فى أبواب وفصول هذا الكتاب ، ولذلك رأينا أن تفرد لها هذا الباب بحيث يكون تلخيصاً جامعاً لتلك المعانى وسنجمل تلك المعانى عقب كل مجموعة وفقا لترتيب الأبيات :

يقول على بن جبلة من قصيدة يمدح بها أبا دلفٍ العجلىّ (٣٢/١٨ ، الأبيات ١ — ١١) :

١٢١٤ ريعتْ لمنشورٍ على مَفْرقِهِ ذَمَّ لها عهد الصِّبا حين انتسبْ
١٢١٥ أهدامُ شيبٍ جُدُدٍ فى رأسِهِ مكروهةُ الجِدَّةِ أنضاءُ العُقَبْ
١٢١٦ أشرقن فى أسود أزرين بهِ كان دُجاه لهوى البيض سببْ
١٢١٧ واعتقْن أيام الغوانى والصبا عن ميِّت مطلبُهُ حُبُّ الأدب
١٢١٨ لم يزدجِرْ مُرْعويًا حين ارْعَوى لكنْ يدٌ لم تتصلْ بمُطّلَبْ
١٢١٩ لم أر كالشيب وقاراً يُجتوى وكالشباب الغضِّ ظِلاًّ يُستلب
١٢٢٠ فنازلٌ لم يُبْتهج بقُربِهِ وذاهبٌ أبقى جَوىً حين ذَهَبْ
١٢٢١ كان الشبابُ لِمّةً أزهى بها وصاحباً حُرًّا عزيز المصطَحب
١٢٢٢ إذ أنا أجرى سادِراً فى غيِّه لا أعتب الدَّهْرَ إذا الدهرُ عَتَبْ
١٢٢٣ أُبعدُ شأْوَ اللهو فى إجرائِهِ وأقصِدُ الخَوْد وراء المحْتجبْ
١٢٢٤ وأُذْعِرُ الرَّبْرَبَ عن أطفالِـهِ بأعْوَجِىٍّ دُلَفِى المُنْتسِـبْ

(حلول المشيب — ذم المشيب — عزوف الغوانى — عدم الارعواء — رفض الوقار — التحسر على الشباب)

ويقول أبو صخر ، الشاعر الهذلى (٢٩١/١٩) :

١٢٢٥ بكَرَ الصِّبا منَّا بكورَ مُزايِلٍ عجِل الشبابُ به فليس بغافِلِ
١٢٢٦ بَانا معاً وتركتُ فى مثواهما أبكى خلافهما بكاء الثاكلِ

١٢٢٧ أخوا صفاءٍ فارقا ببشاشةٍ وبلذةٍ من عيشنا وفواضل
١٢٢٨ وجنائب غدوية تندى ضُحَى وغياطلٍ لِلهو بعد غياطل
١٢٢٩ وبيوت غزلانٍ يُهاب دخولها وهواجر موصولة بأصائل
١٢٣٠ فأناخ شيبُ العارضين مكانه لامرحباً بك من مُقيمٍ نازلِ
١٢٣١ جاوزتنا بقلى لذاذات الصِّبا والغانيات وكل عيشٍ شامل
١٢٣٢ قالت أثيلة قد تنقصك البِلَى ونُكِسْتَ فى أطمارِ أشعث ناحل
١٢٣٣ أأثيل إن السيف يخلق غمده ويرث وهْو على غِرار قاصل

(التحسر على الشباب – حلول المشيب – ذم المشيب – عزوف الغوانى وملامهن – الدفاع عن المشيب)

ويقول **الشريف المرتضى** (٣٧٧/٣/١٢ – ٣٧٨) :

١٢٣٤ هل الشيب إلا غُصةٌ فى الحيازم وداءٌ لربّاتِ الخدود النواعم
١٢٣٥ يَحُدن إذا أبصرنه عن سبيله صدود النشاوى عن خبيث المطاعم
١٢٣٦ تعمّمتُه بعد الشبيبة ساخطاً فكان بياض الشيب شرّ عمائمى
١٢٣٧ وهيّبنى منه كما هاب عائج على الغاب هبات الليوث الضراغم
١٢٣٨ حنتنى منه الحانيات كأننى إذا ظَلْتُ يوماً قائماً غيرُ قائم
١٢٣٩ وتطلع فى ليل الشباب نجومه طلوع الدرارى من خلال الغمائم
١٢٤٠ كأنى منه كلما رُمْتُ نهضةً إلى اللهو مقبوض الخطا بالأداهم
١٢٤١ وقد كنتُ أباءً على كُلِّ جاذبٍ فلما علانى الشيبُ لانت شكائمى
١٢٤٢ ليالى أفدى بالنفوس وأرتدى من البيض إسعافاً ببيض المعاصم

(ذم المشيب – عزوف الغوانى – كراهية المشيب – آيات الكبر – التغير النفسى – البكاء على الشباب)

ويقول أيضا (٣٧٨/٣/١٢) :

١٢٤٣ نَبتْ عَيْنا أمامة عن مشيبى وعَدّتْ شيبَ رأسى من ذنوبى
١٢٤٤ وقالت لو سترتَ الشيبَ عنى ! فكم أخفى التستر من عيوب !
١٢٤٥ فقلتُ لها : أُجلُّ صريح ودّى وإخلاصى عن الشعر الخضيب

١٢٤٦ ومالك يا أميم مع الليالى   إذا طاولن بُدٌّ من مشيب !
١٢٤٧ وماتدليس شيب الرأس إلاّ   كتدليس الوداد على الحبيب
١٢٤٨ فلا تلحىْ عليه فذاك داء   عياء ضَلَّ عن حيل الطبيب

(عزوف الغوانى – الحض على الخضاب – رفض الخضاب – حتمية المشيب)

وثمة أبيات للشاعر المهجرى **نعمة الحاج** من قصيدة له بعنوان «شطح الزمان» وهى من الشعر الوصفى والتأملى أوحى بها إلى الشاعر المشيب والحياة التى تنذر بقرب النهاية ، يقول فيها (٤٣٥/٤٨ – ٤٣٦ ، الأبيات ٧ – ١٦) :

١٢٤٩ ياللمشيب وقد سطا   سَطْوَ القوىّ على الضعيف
١٢٥٠ عَلَمُ الشتاء تلوح فيـ   ـيه طلائعُ الحدث المخيف
١٢٥١ أين الشبابُ وأين ذا   لك العزم كالحدّ الرهيف
١٢٥٢ حالت إلى اللين الصلا   بةُ والغضارةُ للنشوف
١٢٥٣ والقلب زايله الخفو   قُ إلى رعاشٍ كالوجيف
١٢٥٤ كنت العزيز من الرِّفا   قِ فصرتُ منهم فى الطيوف
١٢٥٥ سبقوا صفوفاً بالرحيـ   ـل وسوف نلحقُ بالصفوف
١٢٥٦ والغانياتُ إذا نظرْ   ن فنظرةُ الطرف العزوف
١٢٥٧ ذكرى اللهيف على الشبا   بِ أشد من وقع السيوف
١٢٥٨ دنيا ترحّب بالضيو   فِ لكى تروغ من الضيوف

(حلول المشيب – المشيب طريق الردى – البكاء على الشباب – آيات الكبر – عزوف الغوانى)

ويقول **ابن الرومى** (٣٧١/٣/١٢ – ٣٧٢) :

١٢٥٩ أبين ضلوعى جمرةٌ تتوقّدُ   على مامضى أم حسرةٌ تتجدّدُ ؟
١٢٦٠ خليلىّ مابعد الشباب رزيّةٌ   يجم لها ماءُ الشئون ويعتد
١٢٦١ فلا تعجبا للجلد يبكى فربما   تفطر عن عين من الماء جلمد
١٢٦٢ شباب الفتى مجلوده وعزاؤه   فكيف وأنّى بعده يتجلّدُ ؟
١٢٦٣ وفقد الشباب الموت يوجد طعمه   صراحاً وطعم الموت بالموت يفقد

١٢٦٤ رزئت شبابى عودة بعد بدأة ... وهن الرزايا باديات وعود
١٢٦٥ سُلِبتُ سوادَ العارضين وقبله ... بياضهما المحمود إذ أنا أمْرَدُ
١٢٦٦ وبُدِّلتُ من ذاكَ البياضِ وحسنه ... بياضاً ذميماً لايزال يسوّد
١٢٦٧ لشتان مابين البياضين معجبٌ ... أنيقٌ ومشنوءٌ إلى العين أنكدُ
١٢٦٨ وكنت جلاء للعيون من القذى ... فقد جعلت تقذى بشيبى وترمد
١٢٦٩ هى الأعين النجل التى كنت تشتكى ... مواقعها فى القلب والرأس أسودْ
١٢٧٠ فمالك تأسى الآن لما رأيتها ... وقد جعلت مرمى سواك تعمد
١٢٧١ تشكى إذا ما أقصدتك سهامها ... وتأسى إذا نكبن عنك وتكمد
١٢٧٢ كذلك تلك النبل من وقعت به ... ومن صرفت عنه من القوم مقصد
١٢٧٣ إذا عدلت عنا وجدنا عدولها ... كموقعها فى القلب بل هو أجهد
١٢٧٤ كفى حَزَناً أن الشباب معجل ... قصير الليالى والمشيب مخلّد
١٢٧٥ إذا حلّ جارى المرء شأوحياته ... إلى أن يضم المرءَ والشيبَ ملحد
١٢٧٦ أيومَ الهوى هلاّ مواضيك عُوَّدُ ! ... وهل لشباب ضَلّ بالأمسِ منشد ؟

(البكاء على الشباب — ذم المشيب — عزوف الغوانى — حتمية المشيب — البكاء على الشباب)

وللسيد محسن الأمين الحسينى العاملى صاحب معادن الجواهر مجموعة من مثل هذه الأبيات الجامعة فهو يقول (١٢/٣/٣٧٩ — ٣٨٠) :

١٢٧٧ ذهب الشبابُ فما الشباب بآيب ... وأتى المشيبُ فما المشيبُ بذاهبِ
١٢٧٨ ومضى مع الستين ستٌّ بَعْدها ... شابت لهن مفارق وذوائبى
١٢٧٩ نفر الغوانى مذ رأين بياضه ... من كل خرعبة وبكر كاعب
١٢٨٠ قد كان ريعان الشباب يقودها ... وهى الجموع إلى مقاد جنائب
١٢٨١ فاليوم أضحتْ وهى أنفر من ظبا ... ء الوحش عنى نزحاً عن جانبى
١٢٨٢ والغيد إلف للشبيبــة والغنى ... أبداً وأعداء القذال الشائب
١٢٨٣ ذهبتْ لِذاذاتُ الشباب ونغصتْ ... بيد المشيب مطاعمى ومشاربى
١٢٨٤ قالوا تعلّلْ بالخضاب فإنه ... بعد المشيب لسلوةٌ للخاضب
١٢٨٥ لكننى والصدق طبعى لم أمل ... يوماً إلى ذاك الخضاب الكاذب
١٢٨٦ يأيها الضيف الملمّ بمفرق ... عنى صددت أحبتى وحبائبى

(التحسر على الشباب – حلول المشيب – عزوف الغوانى – الحض على الخضاب – رفض الخضاب)

ويقول (١٢/٣/٣٨٠) :

١٢٨٧ أفبعد ماشتعل المشيب براسى   وألان صرفُ الحادثات مراسى
١٢٨٨ أرجو من البيض الحسانِ مودة   هيهات فالجراح شيب آسى
١٢٨٩ والغيد إلف للشبيبة والغنى   وضرائر للشيب والإفلاس
١٢٩٠ وإذا الغنى هوى فهاهة باقل   فى الناس يحسب فى ذكاء إياس
١٢٩١ والفقر لو أمسى لقسٍّ صاحباً   لأصابه بالعىِّ والإخراس
١٢٩٢ قالت علاكَ الشيب قبل أوانه   فأذَلَّ صعبك بعد طول شماس
١٢٩٣ لاحبذا عصر المشيب وحبذا   عصر وأنت من الشبيبة كاسى !
١٢٩٤ فأجبتُها لاتجزعى من شيبة   عجلت علىَّ فما بها من باس
١٢٩٥ فالشيبُ عنوان الوقار وآية   لرجوع حلم كالأشم الراسى
١٢٩٦ قالت وقد أبْدَتْ تبسم هازئ   ماللوقار وقدّى المياّس ؟

(حلول المشيب – عزوف الغوانى وملامهن – الشيب المبكر – الدفاع عن المشيب – رفض الوقار)

ويقول من قصيدة له (١٢/٣/٣٨١) :

١٢٩٧ صبوتُ وهمتُ من بعد المشيبِ   بنازلةٍ على سفح الكثيبِ
١٢٩٨ رأت رأسى يلوحُ الشيبُ فيه   فصَدَّتْ حين لاح لها مشيبى
١٢٩٩ وقد كان الشباب شفيع ذنبى   فأمسى الشيب من أدهى ذنوبى
١٣٠٠ ومإن شبت من كِبر ولكن   هومٌ شَيَّبَتْ قبل المشيب !
١٣٠١ أدلسُ بالخضابِ بياضَ شيبى   ومأرْبَى من الشيب الخضيب
١٣٠٢ يروقك حين تنظره صباحاً   وينصل لونُه عند الغروب !

(عدم الارعواء – عزوف الغوانى – ذم المشيب – الشيب المبكر – عدم جدوى الخضاب) .

البـــاب الرابـــع

البحترى وقضية الزمن

البحترى وقضية الزمن

لقد أفردنا هذا الباب – كما سبق أن ذكرنا فى المقدمة – لمجموعة الأبيات التى تناول فيها البحترى قضية الزمن من حيث الشباب ومايفعله المشيب وقد وجدنا أن المعانى التى يتناولها البحترى لاتخرج عن تلك التى أحصيناها وصنفناها فى أبواب وفصول هذا الكتاب ، ومن ثم فإننا سنقوم هنا بتصنيف أبيات البحترى وفقا للترتيب الذى اتبعناه فى تقسيم أبواب وفصول هذا الكتاب ، غير أننا سنكتفى بإدراجها تحت عناوينها الرئيسية تجنباً للتكرار ، مع ملاحظة أن ماجاء منها فى وصف الشباب والمشيب من الناحية البيانية قد أوردناه فى المقدمة .

١ – ب : مدح الشباب :

يقول البحترى فى مطلع قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان (١٤٢٢/٣/٤٦) :

١٣٠٣ شرخُ الشبابُ أخو الصبا وأليفه   والشيب ترجية الهوى وخُفُوقُهُ

ويقول (٢٦٤١/٤/٤٦) :

١٣٠٤ أأخيب عندك والصّبا لِى شافِعٌ   وأردُّ دونك والشباب رسولى ؟

ويقول (٢٥٥٠/٤/٤٦) :

١٣٠٥ أيام غصن الشباب يهتزّ كالـ   ـلأسْمَرِ فى راحة ابن حمّاد

١ – د : البكاء على الشباب :

يقول البحترى (٣٩١/١/٤٦)

١٣٠٦ عـاديتُ مسرآتى فـآذنتها   بالهَجْرِ ، ماكانت وماكنت

١٣٠٧ كانت تريِنى العمْر مستقبلاً   وهى تريِنى الفَوْتَ مُذْ شِبْتُ

١٣٠٨ واعُـمُرا ! نَـوْحاً لفقدانهِ   سِيَّان عندى شبت أم متُّ !

ويقول من قصيدة طولها ٤٢ بيتاً يمدح بها أبا العباس بن ثوابة (١٤٤/١/٤٦ ، البيتان ١١ – ١٢) :

١٣٠٩ إن تَسَلْنِى عن الشباب المُوَلِّى فهو القارظُ انتظرتُ إيابَهْ
١٣١٠ غضُّ عيشٍ زالت غمامته عنِّى م ومن بالغمامة المُنْجابَهْ

وبجده يفتتح قصيدته التى يمدح بها أبا عيسى بن صاعد بهذه الأبيات (٢٤١/١/٤٦) :
١٣١١ كيف به والزمانُ يَهْرُبُ بِهْ ماضى شبابٍ أَغْذَذْتُ فى طَلَبِهْ
١٣١٢ مقْتَربُ العهد إن أُرِمْهُ أجِدْ مسافة النجم دون مُقْتَربِهْ
١٣١٣ يَرْفَضُّ عن ساطعِ المشيب كما ارفَضَّ م دخانُ الضِّرامِ عَنْ لَهَبِهْ

وفى مطلع قصيدة مدح يقول (٢٦١/١/٤٦) :
١٣١٤ أَمَرْدُودٌ لنا زمنُ «الكثيب» وغُرَّةُ ذلك الرشإِ الربيب ؟
١٣١٥ وأيام الشبابِ مُعَقَّبَاتٌ على إبداء آثام المشيب !

وفى مطلع قصيدة يمدح بها الخضر بن أحمد التغلبى نسمعه يقول (٥٩٦/١/٤٦) :
١٣١٦ بان عهدُ الصِّبا وباقى جَدِيدِهْ بين إعوازِ طالب ووجودِهْ
١٣١٧ ولما قد تُقاوِيانِ من اللهـ ـوِ بيانٌ فى بيضِ فودٍ وسُودِهْ
١٣١٨ وعجيبٌ طريفُ ذا الشَّعرِ الأبـ ـيض أبْدى خُلُوقَةً من تليدِهْ
١٣١٩ هل مبكٍّ على الشبابِ بمُسْتَغْـ ـزَرِ دَمْعِ الأسى على مفقودِهْ

وقال يعتذر إلى أحمد بن الحسين بن صدقة بالشام (١٢٠٣/٢/٤٦ ، الأبيات ٤ — ٧) :
١٣٢٠ صَدْيَانَ يُمْسى والمناهلُ جَمَّةٌ كَثَباً يُحَلَّأُ عن ذُراها مُجْهِضَا
١٣٢١ أنَّى سبيلُ الغيِّ منكَ وقد نضا من صِبْغِ رِيْعانِ الشبيبة مانضا ؟
١٣٢٢ ياليت شعرى ! هل يعودُ كما بدا زمنُ التصابى أو يجىء كما مضى ؟
١٣٢٣ كانت ليالى صبوةٍ فتقطعتْ أسبابُها وأوانُ لهْوٍ فانقضى !

وقال يمدح أبا العباس بن بسطام (٢٩٦/٤/٤٦ ، البيتان ٦ — ٧) :
١٣٢٤ أللشبيبة لمَّا كان آخرهـا خلفى ، وللشيب لما كان قُدَّامى
١٣٢٥ هل الشبابُ مُلِم بى فراجِعَةٌ أيامُه لِىَ فى أعقاب أيامى ؟

وقال فى مطلع قصيدة يمدح بها إبراهيم بن الحسن بن سهل ، وقيل يمدح أبا الخير كاتب محمد بن يوسف (١١٩٥/٢/٤٦) :

١٣٢٦ أما الشبابُ فقد سُبقتَ بِغَضِّهِ   وحططتَ رَحْلَكَ مسرعاً عن نَقْضِهِ
١٣٢٧ وأفاق مشتاقٌ ، وأقْصر عاذِلٌ   أرضاهُ فيكَ الشيبُ إذْ لم تُرْضِهِ
١٣٢٨ شَعَرٌ صحبْتُ الدهرَ حتى جاز بى   مُسْوَدُّهُ الأقصى إلى مُبْيَضِّهِ
١٣٢٩ فَعَلَى الصِّبا الآن السلامُ ولوعة   تثنى عليه الدمع فى مُرْفضِّهِ

وقال من قصيدة يمدح بها الشاه بن مكال (١٧٢١/٣/٤٦ ، الأبيات ٦ – ٩) :

١٣٣٠ بَانَ الشبابُ فلاعينٌ ولا أثرٌ   إلا بقيَّةَ بُرْدٍ منه أسْمالِ
١٣٣١ قد كدتُ أُخرِجُهُ عن مُنْتَهى عَدَدِى   يأساً ، وأُسْقِطُهُ – إذفات – مِنْ بالى
١٣٣٢ أَسْوَا العواقب يأسٌ قَبْلَهُ أَمَلٌ   وَأَعْضَلُ الداءِ نُكْسٌ بَعْدَ إبلالِ
١٣٣٣ والمرءُ طاعةُ أيامٍ تُنَقِّلُـهُ   تَنَقُّلَ الظِّلِّ من حالٍ إلى حالِ

وقال من قصيدة يمدح بها المعتز بالله (١٤٧٩/٣/٤٦ – ١٤٨٠ ، الأبيات ٧ – ١٠) :

١٣٣٤ قد رابنى هَرَبُ الشبابِ ، وراعنى   شيبٌ يَدِبُّ بياضُه فى مَفْرِق
١٣٣٥ إما تَرَيْنى قد صحوتُ من الصِّبا   ومشيتُ فى سَنَنِ المُبِلِّ المَفْرِقِ
١٣٣٦ وذكرتُ ما أخذ المشيبُ فأرْسَلَتْ   عيناى واكف ديمةٍ مُغْرَوْرِقِ
١٣٣٧ فلقد أرانى فى مخيلة عاشقٍ   حَسَنِ المكانة فى الحسانِ مُعَشَّقِ

وقال من قصيدة يمدح بها أبا الحسن محمد بن صفوان العُقَيْلى (١٤٣٧/٣/٤٦ ، الأبيات ١٠ – ١٢) :

١٣٣٨ أراجعٌ من شبابى فيض مُبتذَلٍ   أنفقتُهُ فى لُبَاناتِ الهوى سَرَفَا ؟
١٣٣٩ لله أيامُنا ما كان أحْسَنَها   لو أنَّ دَهْراً – تولىَّ ذاهباً – وَقَفَا !
١٣٤٠ لاتكذِبَنَّ فما الدنيا براجعةٍ   مافات من لذةِ الدنيا وماسَلَفَا !

وقال (٢٢٢٢/٤/٤٦) :

١٣٤١ بَانَ الشبابُ وكُلُّ شىءٍ بائِنٌ   والمرءُ مُرْتَهَنٌ بما هو كائِنُ
١٣٤٢ ظَعَنَتْ بِهِ أَيَّامُهُ وشهورُه   إن المقيمَ على الحوادثِ ظاعنُ
١٣٤٣ ذهب الشبابُ وغاضَ ماءُ بَرَنْدِهِ   فاليوم منه كُلُّ وِرْدٍ آجِنُ
١٣٤٤ دَرَسَتْ محاسنُهُ وطار غرابُهُ   ولقد تكون له عليكَ محاسِنُ
١٣٤٥ أيامَ طَرْفُكَ للجآذر كامِنٌ   والموتُ فى حَدَقِ الجآذِرِ كامِنُ

١٣٤٦ خان الزمانُ أخاكَ فى لذَّاتِهِ إن الزمانَ لكل حُرٍّ خائنُ !

وقال يمدح الهيثم بن عثمان الغنوىّ (٢٠٨٧/٤/٤٦ ، الأبيات ١ – ٣) :

١٣٤٧ أكان الصِّبا إلاّ خيالاً مُسلِّماً أقام كرجْعِ الطَّرْفِ ثم تَصَرَّمَا ؟

١٣٤٨ أرى أقْصَرَ الأيام أحْمَدَ فى الصبا وأطولها ماكان فيه مُذَمَّما !

١٣٤٩ تَلَوَّمْتُ فى غىِّ التصابى فلم أرِدْ بديلاً به لو أنَّ غيًّا تلوَّمَا

وقال من قصيدة يمدح بها إسماعيل بن بلبل (٧٥٢/٢/٤٦ – ٧٥٣ ، الأبيات ٧ – ١١) :

١٣٥٠ خَلَقُ العيش فى المشيب وإن كا ن نضيراً ، وفى الشباب جديدُهْ

١٣٥١ ليت أن الأيام قام عليها مَنْ إذا ما انقضى زمانٌ يعيدُهْ

١٣٥٢ ولو أن البقاء يختار فينا كان ماتهدمُ الليالى تشيدُه

١٣٥٣ شيختنى الخطوبُ إلا بقايا من شبابٍ لم يبق إلاّ شريدُه

١٣٥٤ لاتنقَّب عن الصِّبا ، فخليقٌ إن طلبناه أن يعزّ وجودُه

وقال يمدح الحسين بن محمد الطائى ، وتروى فى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (١٧٧٥/٣/٤٦ ، البيت الثامن) :

١٣٥٥ وقد خَبَّرَ الشيبُ الشبيبة أنها تَقضَّتْ ، وأنى ماسبيلى سبيلُها !

٢ – أ : حلول المشيب :

وقال من مطلع قصيدة يمدح عبد الله بن الحسين بن سعد (٥٠٩/١/٤٦) :

١٣٥٦ غلَّسَ الشيبُ أو تعجَّل وِرْدُهْ واستعار الشبابَ من لا يُرِدُّهْ

١٣٥٧ لاتسلنى عن الصِّبا بعدما صوَّح م روضُ الصبا وأنهج بُرْدُهْ

١٣٥٨ ومعاضُ المشيب يغدو فيستخـ ـلقُ من عيشنا الذى نستجِدُّه

وقال من مطلع قصيدة يمدح بها الخضر بن أحمد التغلبى (١٠٩٩/٢/٤٦) :

١٣٥٩ هزيعُ دُجًى فى الرأس بادره بدرٌ وليلٌ جلاهُ لاصباحٌ ولافجرُ

١٣٦٠ ولمّة مشتاقٍ ألمَّ مشيبُها على حين لم يودِ الشبابُ ولا العُمْرُ

١٣٦١ فقصْرِكِ إن الشيب من عَدلِ حُكمِهِ وإن كان جوْرًا أن يقال لك القصْرُ

وقال من قصيدة يمدح بها محمد بن طاهر (١٢٧٦/٢/٤٦ ، الأبيات ٦ – ٨) :

١٣٦٢ وكنتُ أُرجِّى فى الشباب شفاعةً   وكيف لباغى حاجةٍ بشفيعهِ
١٣٦٣ مشيبٌ كَنَتٌ السِّرَّ عَىَّ بحمله   مُحدِّثُه أو ضاقَ صدرُ مُذيعهِ
١٣٦٤ تلاحق حتى كاد يأتى بطيئهُ   بحثُّ الليالى قبل أتى سريعه

وقال وهو يمدح أبا العباس بن بسطام (١٩٨/٢/٤٦ ، الأبيات ٧ – ٩) :
١٣٦٥ تَزيدنىَ الأيام مغبوط عيشةٍ   فينقصنى نقص الليالى مرورُها
١٣٦٦ وألحقنى بالشيب فى عقر داره   مناقِلُ فى عرض الشبابِ أسيرُها
١٣٦٧ مضت فى سواد الرأس أولى بطالتى   فدعْنى يُصاحِبْ وَخْطَ شيبى أخيرها

وقال من قصيدة يمدح بها أبا صقر (٤١٧/١/٤٦ ، البيتان ٢٠ – ٢١) :
١٣٦٨ يظن العدى أنى فنيتُ ، وإنما   هى السِّنُّ فى بُردٍ من الشيب مُنْهِج
١٣٦٩ نضوتُ الصِّبا نضو الرداء وساعنى   مُضِىٌّ أخى أُنسٍ متى يَمْضِ لايجى

٢ – ب : ذم المشيب :
وينسب إلى البحترى قوله (٢٥٠٥/٤/٤٦) :
١٣٧٠ علِّنى أحمُد من الدُّوشابْ   شربةً نغَّصَتْ سوادَ الشبابْ
١٣٧١ لو ترانى وفى يدى قدح الدّو   شاب أبصرت بازيًا وغُرابْ(٣٩)

وقال البحترى (٢١٦٢/٤/٤٦) :
١٣٧٢ منزلٌ هاج لى الصبابةَ والشيـ   ـبُ قرينى فيها : وساء قرينا

وقال فى كراهية المشيب لسوء منظره وهو البيت الذى أخذه عنه المتنبى وأوردناه تحت رقم ٢٩٣ (١٧٩/٣/٣) :
١٣٧٣ وددتُ بياض السيف يوم لقيننى   مكان بياض الشيب كان بمفرق

وقال من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان (١٨١١/٣/٤٦ ، الأبيات ٨ – ١٠) :
١٣٧٤ تلف الحلم أن يُطاعَ التَّصابى   وَرَدى اللهو أن يشيب القذالُ
١٣٧٥ أبرح العيش فالمشيب قذًى فى   أعين البيضِ ، والشبابُ جمالُ

---

(٣٩) جاء هذا الروى على لغة قيس التى كانت تسكن الروى مهما كان ولذلك يقولون فحوملْ بدلا من فحوملِ فى بيت امرئ القيس المشهور وهكذا.

وقال من مطلع إحدى قصائده (٣٣١/١/٤٦) :

١٣٧٦ وراءك عنى ياعذول الأشايب   بكُلْفَةِ عَذْلٍ بعد شيب الذوائب !
١٣٧٧ ألم تعلمى أن ليس فى الأرض مَرْأةٌ   تقومُ على حدِّ اعتدال المذاهب ؟

وقال من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه (١٥٠/١/٤٦ ، الأبيات ٧ - ٩) (المشيب ذنب) :

١٣٧٨ عَنَتْ كبدى قسوةٌ منكِ ما   تزالُ تجدِّدُ فيها نُدوبا
١٣٧٩ وحُمِّلتُ عندكِ ذنب المشيـ   ـبِ ، حتى كأنى ابتدعتُ المشيبا
١٣٨٠ ومن يطلِعْ شرف الأربعينَ   يُحيِّى من الشيب زورا غريبا[٤٠]

وقال من أبيات له (١٣/١/٤٦) (المشيب يذهب بالأمل) :

١٣٨١ قد تصابيتُ فاعذرى أو فلومى   ليس شىء من الصِّبا من شانى
١٣٨٢ وتذكرتُ وافدَ الشيب فاستعـ   ـجلتُ حظى فى الراح والريحانِ

٢ - ب - ٤ الشيب طريق الردى

قال البحترى (٨٩/٢٩) :

١٣٨٣ وأرى المنايا إن رأت بكَ شيبةً   جعلتْكَ مَرْمَى نَبْلها المتواتِرِ

وقال (٦٥/١/٤٦) :

١٣٨٤ جلوتُ مرآتى ، فياليتنى   تركتُها لم أُجْلُ عنها الصَّدا
١٣٨٥ كى لا أرى فيها البياضَ الذى   فى الرأس والعارض مِنِّى بَدا
١٣٨٦ يا حسرتا ! أين الشباب الذى   على تعديه المشيبُ اعتدى ؟
١٣٨٧ شبتُ فما أنفكُّ مِن حسرةٍ   والشيبُ فى الرأس رسولُ الردى
١٣٨٨ إن مدى العُمْرِ قريبٌ فما   بقاءُ نفسى بعد قُرب المدى ؟

٢ - ج : عزوف الغوانى وتعييرهن :

قال البحترى من قصيدة يمدح بها أبا الصقر (٩١٣/٢/٤٦) :

---

(٤٠) جاء فى أمالى المرتضى ٧٥/٣ لفظ «يلاقِ» بدلا من «يُحيِّى».

١٣٨٩ أُليحُ من الغوانى أن ترى لى ذوائبَ لاحَها فيها القَتيرُ
١٣٩٠ وجَهْلٌ بيِّنٌ فى ذى مشيبٍ غدا تغترُّه الرَّشأُ الغَريرُ

وقال فى مطلع قصيدة يمدح بها محمد بن بدْر (٤٦/١/٢٢٥):
١٣٩١ عهدى برَبْعِكَ مأنوساً ملاعِبُهُ أشباهُ آرامِهِ — حُسْناً — كواعِبُهُ
١٣٩٢ يشُبْن لِلصَّبِّ فى صفو الهوى كدراً إنْ وَخطُ شيبٍ أعيرته ذوائبُهُ
١٣٩٣ إمَّا رددت عن الحاجات مفتقداً جاهَ الشبابِ الذى قد فات ذاهِبُهُ

وقال من قصيدة يمدح بها إسحق بن يعقوب (٤٦/٣/٣٩١، البيت السابع):
١٣٩٤ إذا ما لقيناهُنَّ والشيب شفعنا تَغابَيْنَ أوكلَّمْنَنا بالسَّوالِفِ

وقال فى مطلع قصيدة يمدح بها المهتدى بالله (٤٦/١/٣٦٩):
١٣٩٥ رأت وَخطَ شيب فى عذارى فَصَدَّتِ ولم تنتظر بى نوىً قد أجَدَّتِ
١٣٩٦ تصدّ على أن الوصال هو الذى وددتُ زماناً أن يدوم وَوَدَّتِ

وقال من قصيدة يمدح بها أبا نهشل محمد بن حميد الطوسى ويعاتبه (٤٦/٣/١٣٩٩، البيت الخامس):
١٣٩٧ ثنت طَرْفَها دون المشيب، ومن يشب فكلُّ الغوانى عنه ثانيةُ الطَّرْفِ

وقال من قصيدة يمدح بها أحمد بن محمد الطائى (٤٦/٢/٦٨٩، البيت الثالث):
١٣٩٨ سبقت بنبوتها المشيبَ، وعَجَّلَتْ فى اليوم هَجْراً كان يُرْقَبُ فى غَدِ

ومن قصيدة يمدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل ويهجو أحمد بن صالح بن شيرزاد يقول (٤٦/٢/١٢٢٩، البيت الثالث).
١٣٩٩ وَصَلْنَ الغوانى حَبْلَهُ وهو ناشئٌ وقارضْنَه الهِجْرانَ والشيبُ واخطُهْ

وقال من قصيدة يمدح بها بنى الفصيفص (٤٦/٢/٧٧٨، البيتان ٨–٩):
١٤٠٠ تذكرتُ أيام الشباب وعادنى على النأىِ من ذِكْرِ الأحبة عيدى
١٤٠١ وكان سوادُ الرأسِ شخصاً مُحَبَّباً إلى كل بيضاء الترائبِ رُودِ

وقال البحترى فى مطلع قصيدة يمدح بها ابن ثوابه (٤٦/٢/٧٤٦) :

١٤٠٢ ضلالاً لها ! ماذا أرادت إلى الصَّدِّ ونحن وقوفٌ من فراق على حَدِّ
١٤٠٣ مزاولةٌ أن تخلِطَ الوُدَّ بالقِلى ومزمِعَةٌ أن تُلحِقَ القُرْبَ بالبُعْدِ
١٤٠٤ رأت لمّةً علَّى بياضاً سوادها تعاقَب مبْيضٌ عليها ومسودٌّ
١٤٠٥ فلا تسألا عن هجرها ، إنَّ هجرَها جنى الصبرِ يُسقَى مُرُّهُ مِنْ جَنَى الشُّهْدِ

وقال فى مدح إبراهيم بن المدّبر (٤٦/٤/٢١٢١ ، الأبيات ١ - ٣) :

١٤٠٦ أيُّها خُلَّةٍ وَوَصْلٍ قديم صَرَمته مِنَّا ظباء الصَّريمِ
١٤٠٧ نافراتٍ من المشيب ، وقد كُنَّ م سُكوناً إلى الشبابِ المقيمِ
١٤٠٨ وإذا ما الشبابُ بانَ فَقُلْ ما شئت فى غائبٍ بطىء القدومِ

وقال فى مطلع قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين المتوكل على الله ، ويذكر صلح بنى تغلب (٤٦/٢/١٢٩٦) :

١٤٠٩ مُنَى النَّفسِ فى « أسْماء » لو تَسْتطيعُها بها وَجْدها مِنْ غادةٍ وَوَلُوعها
١٤١٠ وقد راعنى منها الصدودُ ، وإنما تَصُدُّ لشيب فى عِذارى يَرُوعُها
١٤١١ حملتُ هواها يوم « مُنْعَرج اللِّوى » على كبد قد أوهنَتْها صُدوعُها
١٤١٢ وكنتُ تبيعَ الغانياتِ ، ولم يَزَلْ يَذُمُّ وَفَاءَ الغانيات تبيعُهـا

وقال فى مدح ابن الفيّاض (٤٦/٤/٢١٤٣ ، الأبيات ٦ - ١٠) :

١٤١٣ لو رأت حادِثَ الخضاب لأَنَّتْ وأرنَّتْ من احمرارِ اليَرَنَّا
١٤١٤ خِلْت جَهْلا أن الشبابَ على طو لِ الليالى ذخيرةٌ ليس تفنى
١٤١٥ وأرى الدهر مُدْنياً ما تناءى لضرارٍ ومُبْعِدًا ما تَدَنَّى
١٤١٦ كَلَفُ البيضِ بالمُعَمَّرِ قَـدْرا حين يكلَفْن والمُصَغَّرِ سِنَّا
١٤١٧ يتشاغَفْنَ بالغرير المُسَمَّى من فتاءٍ دون الجليل المُكَنَّى

وقال من قصيدة يمدح بها أحمد بن محمد بن المدبّر (٤٦/٢/٧٧١ ، الأبيات ٦ - ٨) :

١٤١٨ رأت فلتات الشيب فابتسمتْ لها وقالت : نجومٌ لو طَلَعْنَ بأسْعُدِ
١٤١٩ « أعاتِك » ما كان الشبابُ مُقَرِّبِى إليك فألحى الشيبَ إذكان مُبْعِدِى

١٤٢٠ تزيدين هَجْراً كلما ازددتُ لوعةً ... طِلاباً لأَنْ أَرْدَى فهأنذا رَدِ

ومن قصيدة يمدح بها إسماعيل بن بلبل يقول البحترى (٤٦/١/١١٦ ، البيتان ٨ – ٩) :

١٤٢١ قُلْنَ : أين الشبابُ ؟ فى عقب قَوْتٍ ... منه قولاً أعْيا عَلَىَّ جوابُهْ

١٤٢٢ ويموتُ الفتى وإن كان حيًّا ... حين يستكمل النَّفادَ شبابُهْ

وقال من قصيدة يمدح بها أبا المعمر الهيثم بن عبد الله (٤٦/١/٩٨ ، الأبيات ٥ – ١٠) :

١٤٢٣ نأوا بأوانسٍ يَرْجِعْنَ وحْشاً ... إذا فوجئن بالشَّعَر الخضيبِ

١٤٢٤ أقول للمّتى إذ أسرعت بى ... إلى الشيب : اخسرى فيه وخيبى

١٤٢٥ مخالفة بضربٍ بعد ضربٍ ... وما أنا واختلافات الضُّروبِ

١٤٢٦ وكان حديثُها فيها غريباً ... فصار قديمها حَقَّ الغريب

١٤٢٧ يعيبُ الغانيات عَلَىَّ شيبى ... ومَنْ لى أن أُمَتَّعَ بالمعيب ؟

١٤٢٨ ووجدى بالشباب – وإن تولىَّ ... حميداً – دون وجدى بالمشيب

ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها أحمد بن أيوب الرملى (٤٦/١/١١٢) :

١٤٢٩ لا أرى « بالبراق » رسْماً يجيبُ ... سكَنَتْ أيها الصَّبَا والجنوبُ

١٤٣٠ خَلَفَ الجِدَّةَ البِلى فى مغانيـ ... ـها كما يخلفُ الشبابَ المشيبُ

١٤٣١ أيبس العيشُ بعدهُنَّ وقد يُعْـ ... ـهدُ فيهنّ وهو غضٌّ رطيب

١٤٣٢ أسفٌ غالبٌ يحرّ جواه ... وعزاءٌ متمتع مغلوب

١٤٣٣ راعنى ما يروع من وافد الشَّيـ ... ـبِ طروقاً ورابنى ما يريبُ

١٤٣٤ شعراتٌ سودٌ إذا حُلْنَ بيضاً ... حالَ عن وصْلة المحب الحبيبُ

١٤٣٥ مرَّ بعد السوادِ ما كان يحلو ... مُجتناه من عيشنا ويطيبُ

وقال فى مطلع قصيدة يمدح بها أحمد بن محمد الطائى (٤٦/٣/١٣٥٥) :

١٤٣٦ خَطَتْه فلم تحفلْ به الأعين الوُطُف ... وكان الصِّبا إلفاً ففارقه الإلفُ

١٤٣٧ وأسْلى الغوانى عنهُ مُبْيَضُّ فَوْدِهِ ... وكان يُعَنّيهنَّ مُسْوَدُّه الوَحْفُ

١٤٣٨ فكم موعدٍ أَتْوِيَنَهُ ولوينه ! ... فأوله مَطْلٌ وآخره خُلْفُ !

وقال يمدح الخضر بن أحمد (٤٦/٣/١٨٥٣ ، البيتان ٣ – ٤) :

١٤٣٩ إن الغوانى رددن خائبةً ... رسائلى ، واعتذرن من رُسُلى

١٤٤٠ لنبوةٍ بي عن الصِّبا ثلمت جاهي . أو كبرة عن الغزل

ومن قصيدة يمدح بها بني مخلد وكاتب ابن ليثويه يقول (٤٦/٣/١٣٧٦) الأبيات ٩ — ١٢) :

١٤٤١ لن ينال المشيبُ خُطْوة وُدٍّ حيث يسجو لحظٌ وَيَحْوَرُّ طَرْفُ
١٤٤٢ وغريبٌ فى الحب من لم يُصاحِبْ ورقا من جنى الشباب يرفّ
١٤٤٣ ناكرتْه الحسناء أبيض بضاً وهواها لوكان أسودُ وحْف
١٤٤٤ يهضم الشيب أو يُرى النقص فيه أسفٌ يتبع الشبابَ ولهف

ويقول من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان ويذكر عفو المتوكل عن أهل حمص (٤٦/٣/١٥٠٩ ، الأبيات ٩ — ١١) وقد سبق أن أوردنا البيت الثانى تحت رقم ١٣٧٣ ومن ثم لم نعطه رقما هنا :

١٤٤٥ أجِدَّكَ ما وصْلُ الغوانى بمطْمع ولا القلبُ من رِقّ الغوانى بمعتق
.... وددتُ بياض السيف يوم لقينى مكان بياض الشيب كان بمفرقى
١٤٤٦ وصَدَّ الغوانى عن إيماض لمتى وقصَّرْن عن لَبّيكَ ساعة منطقى

ويقول من قصيدة يمدح بها محمد بن الحسين بن فياض كاتب كنداج (٤٦/٢/١٢٠٧) :

١٤٤٧ ناكَرَتْ لمَتى وناكرتُ منها سوءَ هذا الأخْلافِ والأعْواضِ

ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها أبا جعفر أحمد بن محمد الطائى (٤٦/١/٩٣) :

١٤٤٨ أتاركى أنت أم مُغرىً بتعذيبى ولائمى فى هوىً إن كان يُزْرى بى ؟
١٤٤٩ عمرُ الغوانى ! لقد بَيَّنَّ من كثبٍ . هضيمةً فى محبٍّ غير محبوبِ
١٤٥٠ إذا مددن إلى إعراضه سبباً وَقَيْن من كرهه الشبانَ بالشيبِ
١٤٥١ أمْقَلِتُ بك من زُهْلِ المها هرب من مُرْهَقٍ ببوادى الشيب مقروب
١٤٥٢ يحنونه من أعاليه على أودٍ حَنْو الثقافِ جرى فوق الأنابيب

ويقول فى مطلع قصيدة طويلة تبلغ ٥٣ بيتاً يمدح بها أبا زكريا (٤٦/١/٣٥٠ — ٣٥١) :

١٤٥٣ أريحيات صبوة ومشيب من سجايا الأريب شىء عجيبُ
١٤٥٤ وبكاءُ اللبيب بعد ثلاثٍ وثلاثين فى البطالة حوبُ
١٤٥٥ فالنِّدا بالرحيل حين يُنادى بحلول على الشباب مُشيبُ

١٤٥٦ إنَّ ليلاً تبسم الصبح فيه — عن زوال الظلام عنه قريب
١٤٥٧ طالما قد سحبتُ ذيل التصابي — ورداء الشباب غض قشيبُ
١٤٥٨ لعباً يستَدِرْ خلف شبابي — جَلبَ الدهر « ينبب » و « لعوب »
١٤٥٩ والغوانى وإن غنين عفافاً — يَطَّبيهن منه حسنٌ وطيبُ
١٤٦٠ فتى شئت مال منها قضيبُ — ومتى شئت هال منها كثيب
١٤٦١ ولكم مقلة لذات دلالٍ — عقلتنى بالودِّ وهْىَ عَروبُ !
١٤٦٢ كنتُ إنسانها فصرتُ قذاها — مَنْ لها بالشباب وهو رطيب ؟

ويقول من قصيدة يمدح بها عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزيره (٤٦/٢/٧٣٥ ، الأبيات ٥ — ١٠) :

١٤٦٣ أخىَّ إن الصِّبا استمرَّ به — سيرُ الليالى فأنهجت بُرُدُهْ
١٤٦٤ تصدُّ عنى الحسناء مبعدةً — إذ أنا لا قُرْبُهْ ولا صَدَدُهْ
١٤٦٥ شيب على المفرقين بارضُهُ — يكثرنى أن أبينهُ عَدَدُهْ
١٤٦٦ تطلب عندى الشباب ظالمةٌ — بُعَيْدَ خمسين حيث لا تجده
١٤٦٧ لا عجبُ إن مَلِلْتِ خُلَّتنا — فافتقد الوَصْلَ منكِ مفتقدُهْ
١٤٦٨ من يتجاوز على مطاولة العَيْـ — ـشِ تَقَعقع من ملةٍ عَمَدُهْ

٢ — د : الدفاع عن المشيب

٢ — د — ١ : تحسين المشيب

يقول البحترى من قصيدة يمدح بها إسماعيل بن شهاب (٤٦/١/٨٤ ، الأبيات ٨ — ١٠) :

١٤٦٩ عيَّرتنى المشيب وهى بدته — فى عذارى بالصَّد والاجتناب
١٤٧٠ لا تريه عارًا ، فما هو بالشيـ — ـبِ ولكنه جلاء الشباب
١٤٧١ وبياضُ البازىّ أصدقُ حُسْناً — إن تأمَّلتِ من سواد الغراب

ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها أبا نهشل محمد بن حميد الطوسى (٤٦/٣/١٤٨٥ — ١٤٨٦) :

١٤٧٢ ها هو الشيبُ لائماً فأفيق واتركيه إن كان غير مفيق
١٤٧٣ فلقد كفَّ من عناء المُعنى وتلاف من اشتياق المشوق
١٤٧٤ عذلتنا فى عشقها « أم عمرو » هل سمعتم بالعاذِلِ المعشوق ؟
١٤٧٥ ورأى لمةً ألمّ بها الشيـ ـبُ فريعت من ظلمةٍ فى شروق
١٤٧٦ ولعمرى ! لولا الأقاحى لأَبْصَرْ تُ أنيق الرياض غير أنيق
١٤٧٧ وسوادُ العيون لو لم يُحَسَّنْ ببياضٍ ما كان بالمومُوق
١٤٧٨ ومزاجُ الصهباء بالماء أَمْلى بصبوح مستحسن وغُبوق
١٤٧٩ أى ليلٍ يبهى بغير نجوم أم سحابٍ يندى بغير بروق ؟

وقال يمدح الشيب (٤٦/٣/١٦٨١) :

١٤٨٠ بكرت تعيّرنى « نوارُ » سفاهةً وضَح المفارق وابيضَاض المِسْحَل
١٤٨١ ويكُمْ ! بياضُ الصبح أحسن منظراً فى العين من ظلماء ليل أَلْيَل
١٤٨٢ وهل اسودادُ الْعُلو يكمل حسنُهُ فى الطّرْفِ إلا بابيضاضِ الأسفل
١٤٨٣ والصارمُ المصقول أحسن حالةً يوم الوغى مِنْ صارمٍ لم يُصْقَلِ
١٤٨٤ والشمس لولا ضوءُها ما استحسنت والبدر لولا نورُهُ لم يجمـلِ

ويمضى البحترى فى تحسين المشيب فيتحدث عن كونه لا يحول دون البلاء فى ساعة الوغى ، كقوله من قصيدة يمدح بها أبا جعفر محمد بن على بن عيسى القُمّى (٤٦/٣/١٧٦٩ ، البيت ٢٤) :

١٤٨٥ تحسب الشيب فى الوقيعة شبَّا نًا إذا صافح الصَّقيلُ الصَّقيلا

كما يصف كيف يحوّل المشيب المرء إلى النُّهى ، فيقول فى مدح أبى الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمى (٤٦/٢/١١٣٥ - ١١٣٦) ، الأبيات ١٠ - ١٢) :

١٤٨٦ اليوم حوّلنى المشيبُ إلى النُّهى وذللتُ للعُزّالِ بعد شماسِ
١٤٨٧ ورفعت من نظرى إلى أهل الحجا ولويْتُ عن أهلِ الغواية راسى
١٤٨٨ ورضيت من عَوْدِ البخيل وبَدْئِهِ باليأس لو نفع الرِّضا باليأس

غير أن البحترى ، مثله فى ذلك مثل سائر الشعراء يرفض هذا النُّهى الذى يأتى به المشيب ،

ونسمعه يقول فى ختام قصيدة يمدح بها أبا عيسى العلاء بن صاعد (١٢٧٣/٢/٤٦ ، البيتان ٤٩ — ٥٠) :

١٤٨٩ أثائِبُ حِلْمٍ أم أفولُ شبيبةٍ خلَتْ ، وأتى من دونها الشيبُ أجْمَعُ
١٤٩٠ وما خيرُ يومىَّ الذى أنزعُ الصبا له وأحَلَّى بالنُّهى وأمتــعُ !

وهو أيضاً يتحدث عن أن المشيب يدعو إلى الارعواء ، ونراه يحض عليه ، وكذلك يعنف نفسه لأن المشيب لم يجعله يرعوى ، وكل هذه المعانى قد عالجناها فى ٢ — د — ١ من هذا الكتاب . أما عن الارعواء فيقول البحترى من قصيدة يمدح بها أبا الخطاب الطائى (٢٩٥/١/٤٦ ، البيتان ١٢ — ١٣) :

١٤٩١ ولقد علمت — وللمحِبِّ جَهَالةٌ — أن الصِّبا بعد المشيب تَصَابِ
١٤٩٢ وأمَا لو اَنَّ الغَدْرَ يجمل فى الهوى لسلوتُ عنكِ وفىَّ بعض شبابى

ويقول (٢٠١٦/٤/٤٦) :

١٤٩٣ وفى بقايا الفؤاد نــارٌ توقد فى قلب مُسْتَهــامِ
١٤٩٤ وقد نهانى عن الغــوانى ما أخذ الشيب من عُــرامى
١٤٩٥ خمسين أبليْتُ فى التَّصــابى كَهْلاً ، وفى دولةِ الغُــلامِ

وقال فى مطلع قصيدة يرثى بها أبا العباس بن ميكال أخا الشاه (١٨٦٢/٣/٤٦) :

١٤٩٦ تَقَضَّى الصِّبا إلاَّ تَلَوُّمَ راحِلِ وأغنى المشيبُ عن مَلامِ العواذِلِ
١٤٩٧ وتأبى صروفُ الدَّهرِ سودًا شخوصُها على البيض أن يحظين مِنِّى بطائِلِ
١٤٩٨ يحاولن مِنِّى صبوةً ، وإخالنى أخا شُغُلٍ — عما يحاولن — شاغِلِ

وقال يمدح إسماعيل بن بلبل (٢٠١٣/٣/٤٦ ، البيت الثانى) :

١٤٩٩ وما يُعذَرُ الموسومُ بالشيب أن يُرى مُعَارَ لباسٍ للتَّصابى ولاَ وسْمِ

وقال من قصيدة يمدح بها أحمد بن طولون ، ويذكر هرب لولو ودخوله بغداد (١٢٣/١/٤٦ ، البيت الخامس) :

١٥٠٠ ومن أين أصبو بعد شيبى ، وبعدما تألَّى الخَلِىُّ أن ذا الشيب لا يصبو ؟

وقال من قصيدة يمدح بها إسحق بن إسماعيل بن نوبخت (٤٦/١/٢٤٦ – ٢٤٧ ، الأبيات ١٠ – ١٢) :

١٥٠١ كانت فنون بطالةٍ فتقطَّعتْ   عن هجر غانيةٍ ، وَوَخْطِ مشيبِ
١٥٠٢ إمَّا دنوتُ من السُّلُوِّ سُرُوِّياً   فيه ، وبِعْتُ مِنَ الشبابِ نصيبي
١٥٠٣ فلربما لَبَّيْتُ داعية الصِّبا   وعصيتُ مِنْ عَذَلٍ ومن تأنيبِ

ومن قصيدة يمدح بها أبا عامر الخضر بن أحمد ، ويقال هي في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل ، يقول البحتري (٤٦/٢/٨٧٠ ، الأبيات ٧–٩) :

١٥٠٤ وباقى شباب فى مشيب مغلَّب   عليه اختتاء اليوم يكثره الشَّهرُ
١٥٠٥ وليس طليقُ القومِ من راح أو غدا   يسومُ التَّصابى والمشيبُ له أَسْرُ
١٥٠٦ تطاوحنى العصران فى رجوَيْهما   يُسيِّبنى عصر ، ويَعْلَقُنى عَصْرُ

ويمضى البحترى فى الحديث عن وجوب الارعواء بعد المشيب ، ويحضّ عليه ، فيقول فى مطلع قصيدة أخرى يمدح بها أبا عامر الخضر بن أحمد (٤٦/٢/١٢٤٨) :

١٥٠٧ يزدادُ فى غىِّ الصِّبا وَلَعُهْ   فكأنما يُغريه مَنْ يَزَعُهْ
١٥٠٨ وإذا تقول : الصبر يُحجزُهُ   ألوى بصبر متيم جَزَعُهْ
١٥٠٩ ولقد نَهَى – لو كان منتهياً –   فَوْدٌ ينازع شيبهُ نَزَعُهْ
١٥١٠ ما لُبْثُ ريْعانِ الشبابِ إذا   نُذُرُ المشيب تلاحقت شُرَعُهْ
١٥١١ والشيب فيه على نقيصتِهِ   مَسْلًى أخى بثٍّ ومرتَدَعُهْ

ويقول من مطلع قصيدة يمدح بها المعتز بالله (٤٦/١/١٠٨) :

١٥١٢ أَبَعْدَ الشباب المُنْتَضى فى الذوائبِ   أحاول لُطفَ الوُدِّ عند الكواعبِ ؟
١٥١٣ وكان بياضُ الرأسِ شخصاً مُذَمَّماً   إلى كل بيضاء الحشا والترائبِ

وقال (٤٦/١/٤٨٢) :

١٥١٤ وإذا مضى للمرء مِنْ أعوامِهِ   خمسون وهو عن الصِّبا لم يَجنحِ
١٥١٥ عكفت عليه المخزياتُ وقلن : قد   أضحكتنا وسَرَرْتنا ، لا تَبْرحِ
١٥١٦ وإذا رأى إبليسُ غُرَّةَ وجْهِهِ   حَيَّا ، وقال : فديتُ من لم يُفْلِحِ !

ويتحدث البحترى عن عدم الارعواء برغم المشيب ، فيقول فى مطلع قصيدة يمدح بها المتوكل ويذكر أمر ربيعة ، ويشفع لهم إليه (٤٦/٤/٢٢٥٢) :

١٥١٧ لبَّيْتُ فيك الشوقَ حين دعانى   وعصيتُ نَهْىَ الشيبِ حين نهانى

وقال من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله بن طاهر ويستهديه فرساً (٤٦/٣/٢٠٣٠ ، البيت الثانى) :

١٥١٨ عَشيتُ عن المشيب غَدَاةَ أَصْبو   بِذِكْرِكِ ، أوصَمِمْتُ عن المَلامِ

وقال من أبيات كتب بها إلى المبرّد يدعوه (٤٦/١/١٣٢ ، البيت السابع) :

١٥١٩ لا يرعْك المشيبُ مِنّى فإنى   ما ثنانى عن التّصابى المشيب !

وقال فى مطلع قصيدة يمدح بها أبا غالب بن أحمد بن المدبّر (٤٦/٤/٢٣٠٣) :

١٥٢٠ تعاطَ الصبابةَ أوعانِها   لِتَعْذِرَ فى بَرْح أشجانِها

١٥٢١ وما نَقَلَتْ لوعتى لِمّةٌ   تَنَقَّلُ فى حُدْثِ ألوانها

١٥٢٢ أوائل شيبٍ يشير العذول   إليها ، ويُكبِر من شانها

١٥٢٣ إذا حَرَّمَ اللهوَ مِنْ أجْلها   غلا فى مقادير أوْزانها

١٥٢٤ وإلاّ تجدنى مطيعاً لها   فلم أعْصها كُلَّ عِصيانها

٢ - د - ٢ : حتمية المشيب :

من قصيدة يمدح بها إسماعيل بن بلبل يقول البحترى (٤٦/١/١١٩ ، الأبيات ٢ - ٤) :

١٥٢٥ رُدِّى عَلَىَّ الصبا إن كنت فاعلةً   إن الهوى ليس من شأنى ولا أَرَبِى

١٥٢٦ جاوزتُ حَدَّ الشباب النَّضْرِ ملتفِتاً   إلى بنات الصِّبا يركُضْن فى طلبى

١٥٢٧ والشيبُ مَهْرَبُ مَنْ جَارَى منيتَهُ   ولا نجاءَ له من ذلك الهَرَبِ !

ويقول (٢٩/٨٧) :

١٥٢٨ ولِمّةٌ كنتُ مشغوفاً بجِدَّتِها   فما عفا الشيب لى عنها ولا صَفَحَا

ويقول من قصيدة طويلة تبلغ ٤٦ بيتاً يمدح بها ابن بسطام (٤٦/١/١٣٦ ، البيت ١٤) :

١٥٢٩ وقد رَدَّتْ الخمسون رَدَّ صريمةٍ   إلى الشيب من وَلّى عن الشيب يهربُ

ويقول من قصيدة يمدح بها أحمد بن عليّ الإسكافى (٤٦/١/٣٣٨ ، البيتان ٦ — ٧) :

١٥٣٠ مالى وللشيب آباه ويتبعنى وللصبابة أنآها وتقترب ؟
١٥٣١ وقد حرصتُ على جدّى يُصاحبنى على الشباب لو انّ الحظَّ يُكتسَبُ

وقال من قصيدة يمدح بها يوسف بن محمد بن يوسف الصّامتى (٤٦/٣/١٤١٦ ، البيتان ٨ — ٩) :

١٥٣٢ وأنا المُعنَّفُ فى الصبابة والصِّبا وعليهما إن كنتَ غير مُعنَّفِ
١٥٣٣ عَجِبَتْ لتفويف القذال وإنما تفويفه لوكان غيرَ مُفوَّفِ

وقال من قصيدة يمدح بها المنتصر بالله (٤٦/٢/٨٤٨ — ٨٤٩ ، الأبيات ٤ — ٧) :

١٥٣٤ وما أنسَ لا أنس عهدَ الشباب و« عَلْوَةَ » إذ عَيَّرتنى الكبر
١٥٣٥ كواكبُ شيْبٍ عَلِقْنَ الصِّبا فقلّلْنَ من حُسْنِهِ ما كثُرْ
١٥٣٦ وإنى وجدتُ ، فلا تكْذَبَنّ سوادَ الهوى فى بياض الشعر
١٥٣٧ ولابدَّ من تركِ إحدى الثنيـْ ـن : إمّا الشبابِ ، وإمّا العُمُرْ

وقال من قصيدة يمدح بها المعتمد على الله (٤٦/٢/٧٣٠ — ٧٣٢ ، الأبيات ٥ — ٩) :

١٥٣٨ هل أنت صارِفُ شيبة إن غلستْ فى الوقت أوعَجِلَتْ عن الميعادِ
١٥٣٩ جاءت مقدمةً أمام طوالع هذى تراوحنى وتلك تغادى
١٥٤٠ وأخو الغبينة تاجرٌ فى لمّةٍ تشرى جديدَ بياضها بسوادِ
١٥٤١ لا تكذبنّ فما الصِّبا بمخلَّفٍ فينا ولا زمنُ الصِّبا بمُعادِ
١٥٤٢ وأرى الشباب على غضارة حُسْنِهِ وجمالِهِ عدداً مِن الأعدادِ

وفى مطلع قصيدة يمدح بها أبا صقر إسماعيل بن بلبل يقول البحترى (٤٦/٢/١١٩٨ — ١١٩٩) :

١٥٤٣ ترك السَّوادَ للابسِهِ وبَيَّضا ونضا من السِّتين عنه ما نضا
١٥٤٤ وشآهُ أغْيدُ فى تَصَرُّفِ لحظِهِ مرضٌ أعَلّ به القلوبَ وأمرضا
١٥٤٥ وكأنه ألْفَى الصبا وجديدَهُ دَيْناً دنا ميقاتُهُ أن يُقتضى
١٥٤٦ أسْيان أثْرى مِنْ جوىً وصبابةٍ وأساف مِنْ وَصْلِ الحسانِ وأنفضا

١٥٤٧ كَلِفٌ يكفكفُ عبْرةً مُهراقةً   أسفاً على عهدِ الشبابِ وما انقضى
١٥٤٨ عَدَدٌ تكامل للذهابِ مجيئهُ   وإذا مُضِيُّ الشيء حانَ فقد مضى

٢ — د — ٣ : الشيب المبكر :

يقول البحترى (٤٦/٤/٢٠٩٤ ، البيت الرابع) :

١٥٤٩ وشَيَّبنى ألأزال مُجْرراً   سرابيلَ سآل كثير المغارِمِ

ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها أبا جعفر أحمد بن محمد الطائى (٤٦/٣/١٧١٥) :

١٥٥٠ قالت : الشيبُ بدا ، قلت : أَجَلْ   سبق الوقتَ ضِرارا وعَجِلْ
١٥٥١ ومع الشيب على عِلاّتــهِ   مُهْلةٌ للهو حيناً والغَــزَلْ
١٥٥٢ خَيَّلتْ أن التصابى خَــرَقٌ   بعد خمسين ، ومن يسْمَعْ يَخَلْ

ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها سعيد بن محمد (٤٦/٢/١١٧٦) :

١٥٥٣ ما أَنْسَ من شىء فلستُ بناسى   عَهْدَ الشبابِ إذ الشبابُ لباسى
١٥٥٤ إن الخطوبَ طوينى ونشرْننى   عَبْثَ الوليد بجانب القرطاس
١٥٥٥ ما شبتُ من طول السنين ، وإنما   طولُ الملامة فيك شيبَ راسى !

ويقول من قصيدة يمدح بها إسماعيل بن شهاب (٤٦/١/ ٨٤ ، البيت الثامن) وقد سبق وروده تحت رقم ١٤٦٩ :

.... عيَّرتنى المشيبَ ، وهى بَدَتْهُ   فى عِذارى بالصَّد والإجتناب

تلخيص

وكما فعلنا فى الباب الثالث نورد هنا مجموعة من أبيات للبحترى تجتمع فيها المعانى التى جاءت فى سائر النماذج ، وبها نختم هذا الكتاب .

يقول البحترى فى مطلع قصيدة يمدح بها علىَّ بن مُرّ الطائى (٤٦/٢/٩٥٣ – ٩٥٤) :

١٥٥٧ فى الشيب زَجْرٌ له لو كان ينزجِرُ ... وواعظ منه لولا أنه حجرُ(٤١)

١٥٥٨ ابيَضَّ ما اسوَدَّ من فَوْديه وارتجعتْ ... جليةُ الصبح ما قد أغفل السَّحَرُ

١٥٥٩ وللفتى مُهلةٌ فى الحب واسعةٌ ... ما لم يَمُتْ فى نواحى رأسه الشَّعَرُ

١٥٦٠ قالت : مشيبٌ وعشق رُحْتَ بينهما ! ... وذاك فى ذاك ذَنْب ليس يُغتفر

١٥٦١ وعيّرتنى سجال العُدْمِ جاهلةً ... والنبعُ عُرْيانُ ما فى فرعِهِ ثَمَرُ

ويقول فى مطلع قصيدة يمدح بها محمد بن الحسين بن الفيّاض كاتب ابن كُنداج (٤٦/٢/١٢٠٧– ١٢٠٨) وقد سبق أن أوردنا البيت الخامس تحت رقم ١٤٤٧ :

١٥٦٢ لابسٌ من شبيبة أمْ ناضِ ؟ ... ومُلَيحٌ من شيبة أم راضِ ؟

١٥٦٣ وإذا ما امتعضتُ من وَلَعِ الشيـ ... ـبِ برأسى لم يثن منه امتعاضى

١٥٦٤ ليس يرضى عن الزمانِ مُروٌّ ... فيه إلا عن غفلةٍ أو تغاضِ

١٥٦٥ والبواقى على الليالى وإن خا ... لفْن شيئاً فمشبهاتٌ المواضى

.... ناكرت لمّتى وناكرتُ منها ... سوءَ هذا الأخلافِ والأعْواضِ

١٥٦٦ شعراتٌ أقُصُّهنَّ ويرجعـ ... ـنَ رجوعَ السِّهام فى الأغراضِ

١٥٦٧ وأبَتْ تركى الغُدَيّاتُ والآ ... صالُ حتى خضبتُ بالمقراض

١٥٦٨ غير نَفْع إلا التعللُ من شَخْـ ... ـصِ عدوّ لم يَعْدُهُ إبغاضى

١٥٦٩ ورواءُ المشيب كالبخص فى عيْـ ... ـنى فقُل فيه فى العيون المِراض

١٥٧٠ طبتُ نَفساً عن الشباب وما سُوِّ ... دَ مِنْ صبْغ بُرْدِهِ الفضفاض

---

(٤١) فى معادن الجواهر ٣/٣٧١ جاءت هذه الاختلافات : عجز البيت الأول : « وبالغ منه لولا أنه حجر » صدر البيت الثالث : « قالت مشيب وعشق أنت بينهما » .

ثبت مصادر الشعر

١ — **العقد الفريد** تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى ، بتحقيق محمد سعيد العريان . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى . الطبعة الأولى ، ١٣٦٠هـ — ١٩٤١م

٢ — **شرح ابن عقيل** تأليف بهاء الدين بن عقيل العقيلي الهمدانى المصرى بتحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥م

٣ — **خزانة الأدب** ولب لباب لسان العرب ، تأليف عبد القادر بن عمر البغدادى . القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، وإدارة الطباعة المنيرية ، ١٣٤٨هـ

٤ — **يتيمة الدهر** فى محاسن أهل العصر لأبى منصور الثعالبى بتحقيق وشرح إيليّا الحاوى . بيروت ، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع . الطبعة الأولى .

٥ — **الأغانى** لأبى الفرج الأصفهانى . القاهرة . مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨م

٦ — **مختار الأغانى** فى الأخبار والتهانى لابن منظور محمد بن مكرم . القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٣٨٥هـ — ١٩٦٥م .

٧ — **اللطائف والظرائف** واليواقيت فى بعض المواقيت ، تأليف الشيخ أبى منصور الثعالبى ، جمعها الإمام أبو النصر أحمد المقدسى . القاهرة . مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ، ١٣٣٤هـ .

٨ — **البيان والتبيين** للجاحظ بتحقيق فوزى عطوى . بيروت . مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٨

٩ — **تثقيف اللسان** وتلقيح الجنان لابن مكى الصّقلى بتحقيق الدكتور عبد العزيز مطر . القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . لجنة إحياء التراث الإسلامى ، ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م .

١٠ — **المقتضب** لأبى العباس محمد بن يزيد المبرّد تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة القاهرة .

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . لجنة إحياء التراث الإسلامى ، ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م
١١ — **شروح سقط الزند** لأبى العلاء المعرى . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٣هـ — ١٩٦٤م
١٢ — **معادن الجواهر** ونزهة الخواطر فى علوم الأوائل والأواخر ، تأليف السيد محسن الأمين الحسينى العاملى . دمشق ، مطبعة ابن زيدون ، ١٣٥١ — ١٣٥٢هـ
١٣ — **الوسيط** فى الأدب العربى وتاريخه ، تأليف الشيخ أحمد الإسكندرى والشيخ مصطفى عنانى . القاهرة ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثامنة عشرة .
١٤ — **العمدة** فى محاسن الشعر وآدابه ونقده تأليف أبى الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . بيروت ، دار الجيل ، المطبعة الرابعة ، ١٩٧٢ .
١٥ — **المنتخب** من أدب العرب ، تأليف طه حسين وآخرين . القاهرة ، وزارة المعارف العمومية ، ١٩٣٤ .
١٦ — **المفصل** فى تاريخ الأدب العربى تأليف أحمد الإسكندرى وآخرين . القاهرة وزارة المعارف العمومية ١٣٥٢هـ — ١٩٣٤م .
١٧ — **الفكاهة فى الشعر العربى** تأليف فتحى محمد معوض أبى عيسى . الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م .
١٨ — **شعر على بن جبلة** الملقب بالعكوك ، جمع وتحقيق الدكتور حسين عطوان القاهرة دار المعارف بمصر ، ذخائر العرب ٤٨ ، ١٩٧٢ .
١٩ — **شعر الهذليين** فى العصرين الجاهلى والإسلامى ، تأليف الدكتور أحمد كمال زكى . القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .
٢٠ — **الجاحظ** فى حياته وأدبه وفكره ، تأليف جميل جبر . بيروت ، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ .
٢١ — **أساس البلاغة** للزمخشرى . القاهرة ، كتاب الشعب ، ١٩٦٠ .
٢٢ — **موسيقى الشعر** تأليف الدكتور إبراهيم أنيس . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٢ .
٢٣ — **مختار الصحاح** للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، ترتيب محمود خاطر بك . القاهرة ، وزارة المعارف العمومية ، ١٣٤٥هـ — ١٩٢٦م .
٢٤ — **فن الجناس** تأليف على الجندى . القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٤ .

٢٥ – **الشعراء وإنشاد الشعر** تأليف على الجندى . القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ .

٢٦ – **لحن العامة** فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، تأليف الدكتور عبد العزيز مطر . القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٧م .

٢٧ – **ابن سناء الملك** . حياته وشعره ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، مراجعة الدكتور حسين محمد نصار . القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .

٢٨ – **فى علمى العروض والقافية** تأليف الدكتور أمين على السيد . القاهرة . دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤ .

٢٩ – **البلاغة الواضحة** تأليف على الجارم ومصطفى أمين . القاهرة . دار المعارف بمصر ، ١٩٧٥ .

٣٠ – **جرير** تأليف محمد إبراهيم جمعة . القاهرة ، دار المعارف بمصر ، توابغ الفكر العربى ١٩ .

٣١ – **مع الشعراء** تأليف حارث طه الراوى . القاهرة ، دار القلم .

٣٢ – **شعراء الإسكندرية فى العصور الإسلامية** تأليف عبد العليم القبانى . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر . مذاهب وشخصيات العدد ١٠١ .

٣٣ – **مجلة الشعر** ، العدد ١٢ ، أكتوبر ١٩٧٨ .

٣٤ – **رواد الشعر السكندرى** فى العصر الحديث تأليف عبد العليم القبانى . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، المكتبة الثقافية ، العدد ٢٨٢ .

٣٥ – **فن التعبير** فى مختارات شعراء العرب تأليف الدكتور عبد العزيز عرفة القاهرة ، دار الطباعة المحمدية ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

٣٦ – **مهرجان الشعر الأول** (دمشق ١٩٥٩) . القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٠ .

٣٧ – **مهرجان الشعر الثانى** (دمشق ١٩٦٠) . القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦١ .

٣٨ – **مهرجان الشعر الثالث** (دمشق ١٩٦١) . القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٢ .

٣٩ – **التصريف الملوكى** لابن جنى . تحقيق محمد سعيد بن مصطفى النعسان وتعليق أحمد الخانى

ومحيى الدين الجراج . دمشق دار المعارف للطباعة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م .

٤٠ — **العلامة اللغوى ابن فارس الرازى** تأليف الدكتور محمد مصطفى رضوان . القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ .

٤١ — **كتاب أدب الدنيا والدين** تأليف أبي الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى القاهرة ، وزارة المعارف العمومية ، الطبعة السادسة عشرة ، ١٣٤٣هـ — ١٩٢٥م .

٤٢ — **أمراء البيان** تأليف محمد كرد على . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٥هـ — ١٩٣٧م .

٤٣ — **حضارة الإسلام فى دار السلام** تأليف جميل نخلة المدور . القاهرة ، وزارة المعارف العمومية ، ١٩٣٥ .

٤٤ — **المجمل فى تاريخ الأدب العربى** تأليف طه حسين وآخرين . القاهرة ، وزارة المعارف العمومية ، ١٩٣٢ .

٤٥ — **نهاية الأرب فى فنون الأدب** تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٧هـ — ١٩٢٩م .

٤٦ — **ديوان البحترى** القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ذخائر العرب ٣٤ ، ١٩٦٢ .

٤٧ — **من حديث الشعر والنثر** تأليف الدكتور طه حسين ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٩٧٥ .

٤٨ — **أدب المهجر** تأليف عيسى الناعورى . القاهرة ، دار المعارف بمصر ، مكتبة الدراسات الأدبية ١٤ ، ١٩٥٩ .

٤٩ — **عيون الأخبار** تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦هـ — ١٩٢٨م .

٥٠ — **ديوان الهذليين** تحقيق أحمد زين العابدين . القاهرة . وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ١٩٦٥ .

٥١ — **تاريخ الأدب العربى** تأليف على الجارم وآخرين . القاهرة ، وزارة المعارف العمومية ، ١٩٤٠ .

٥٢ — **الأمثال العامية** لأحمد تيمور باشا . القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠ .

٥٣ — **المدينة المنورة** ، العدد ٤٢١٥ ، الأربعاء ٨ من شهر ربيع الأول ١٣٩٨هـ — ١٥ من فبراير ١٩٧٨م ، الصفحة الثامنة .

٥٤ — **المدينة المنورة** ، العدد ٤٢٨٥ ، الاثنين غرة جمادى الآخرة ١٣٩٨هـ — ٨ من مايو ١٩٧٨م ، الصفحة الخامسة .

٥٥ — **مجالس ثعلب** لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ذخائر العرب ١ ، ١٩٤٩ .

٥٦ — **الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة** لابن سعيد أبي الحسن على بن موسى الأندلسى ، تحقيق إبراهيم الإبيارى . القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ذخائر العرب ١٤ ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧م .

٥٧ — **الشعر العربى والذوق المعاصر** تأليف الدكتور محمد كامل حسين . القاهرة ، دار ومجلة الإذاعة والتليفزيون .

٥٨ — Guest, Rhuvon, **Life and Works of Ibn Er-Rumi.** London: & Co., 1944.

كتب أخرى للمؤلفة

- دائرة معارف الناشئين (الألف كتاب رقم ١٤٨) – دار الهلال – ١٩٥٧
- هواية جمع طوابع البريد (مترجم) – نهضة مصر – ١٩٥٧
- إنجليزى يتحدث عن مصر (مترجم) (سلسلة كتب للجميع العدد ١٢٠)
  دار التحرير للطبع والنشر – ١٩٥٧
- عالمنا الذى نعيش فيه (كتاب الشعب رقم ٢١) – ١٩٥٨
- كيف نعيش اليوم؟ (كتاب الشعب رقم ٢٣) – ١٩٥٨
- لم قُدِّر عليّ هذا؟ (مترجم) مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – ١٩٦٠
- نحو مدارس أفضل (مترجم) مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – ١٩٦٠
- القمر والشمس والنجوم (مترجم) مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – ١٩٦١
- الخيط الحق (مترجم) مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – ١٩٦٢
- نهاية شيء (مجموعة قصص). دار النهضة العربية – ١٩٦٢
- ألوان من المعرفة للناشئة (مترجم) دار النهضة العربية – ١٩٦٢
- تمثيليات زجلية للأطفال – دار النهضة العربية – ١٩٦٢
- الأرض الطيبة (اخترنا للطالب العدد ٦٩). الدار القومية للطباعة والنشر – ١٩٦٢
- دائرة معارف الشباب – دار النهضة العربية – ١٩٦٣
- دراسات فى علم اللغة – دار النهضة العربية – ١٩٧٦

مؤلفات باللغة الإنجليزية

A Linguistic Study of Cairene Proverbs. Language Science Monographs, Vol. 1. — الناشر جامعة إنديانا بالولايات المتحدة – ١٩٦٨

Studies in Linguistics — الناشر: دار النهضة العربية – ١٩٧٦

Dictionary of Linguistics, Vols. 1 – 2. — الناشر: دار النهضة العربية – ١٩٧٧

رقم الإيداع		١٩٨٠/٣٩٦٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٤-٦٩-٩	ISBN

١/٧٩/١٨٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

General [illegible] Akcam[illegible]
and [illegible])
[illegible]

هذا الكتاب

دراسة جادة مخلصة ، تتناول موقف الشاعر العربي بل موقف الإنسان بوجه عام من قضية الزمن .

والشاعر في مواجهة الزمن يحزن حين يزحف المشيب إلى رأسه لكنه سرعان ما يطوع ذلك الإحساس الحزين ليصبح المشيب حلية العقل ، وسمة الوقار ، وحصيلة تجارب العمر .

وتتناول فصول الكتاب عرضاً وافياً لهذه القضية لدى الشعراء بشقيها : الشباب والمشيب ، كيف عبروا عنها ، وما رؤية كل منهم التي التزموها وعرفوا بها من خلال بيئاتهم وثقافاتهم الخاصة . .

وبهذا تعتبر هذه الدراسة جديدة متفردة ، تقف بالقارئ على أبعاد التصور الفني لهذه القضية . .